مجموعة قصصية

إيفان بونين

جنتلمان من سان فرانسيسكو

ترجمة:
إبراهيم إستنبولي

مكتبة
#907

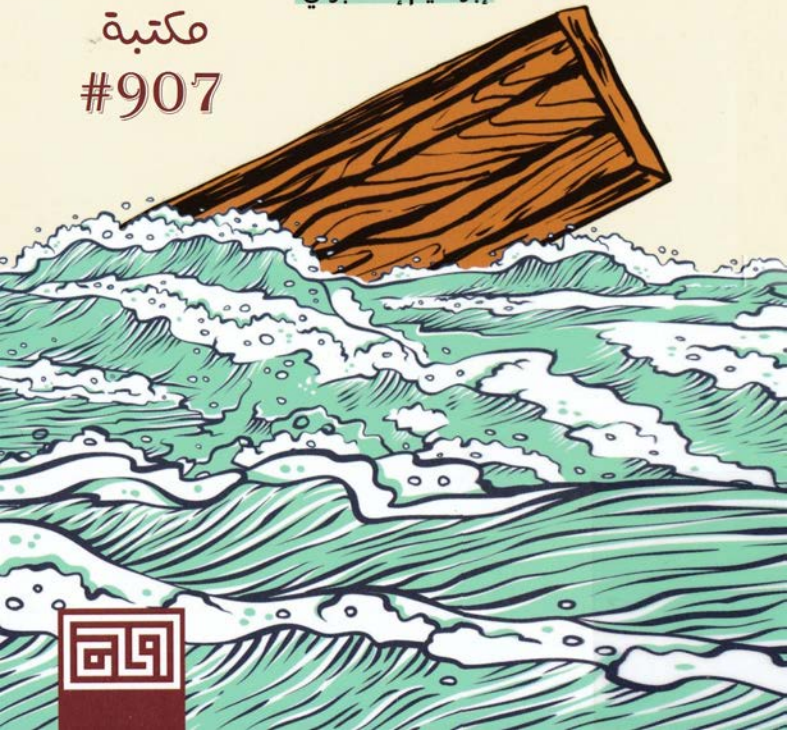

مكتبة | سُر مَن قرأ

جنتلمان من سان فرانسيسكو

وقصص أخرى

إيفان بونين

Author: Ivan Bunin

The Gentleman from San Francisco

© Copyright

Translated from Russian by:
Ibrahim Istanbouli

Book Design:
Sarwar Murad

Book Cover Design:
Markly
www.markly.net

ترجمها عن الروسية:
إبراهيم إستنبولي

الإخراج الفني:
سرور مراد

تصميم الغلاف:
ماركلي

الطبعة الأولى | أكتوبر 2021
ISBN: 978-9921-712-41-4
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية – دولة الكويت:
0709-2021

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر
© Alkhan Publishing & Distribution

+965 99462291 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw
info@daralkhan.com

مكتبة | سُر مَن قرأ

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

مجموعة قصصية

مكتبة
t.me/t_pdf

جنتلمان من سان فرانسيسكو

وقصص أخرى

إيفان بونين

ترجمة

إبراهيم إستنبولي

4 8 2022

2021

Author: Ivan Bunin

The Gentleman from San Francisco

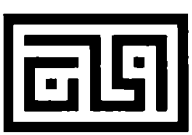

2021

الفهرس

كاديمير ستانيسلافوفيتش ٩
الدروب المعتمة ٢٥
الأنفاس الناعمة ٣٥
جنتلمان من سان فرانسيسكو ٤٧
انتقام ٩١
نيغرا ١٠٩
باطل الأباطيل ١٢٣
ناتالي ١٣١

كاديمير ستانيسلافوفيتش

نجح البواب الشاب في فندق «فيرسال» في أن يقرأ على بطاقة زيارة قديمة صفراء، مع شعار النبالة عليها، الاسم والكنية فقط وبصعوبة: كاديمير ستانيسلافوفيتش؛ ثم كانت هناك كتابة لم يكن سهلًا عليه أن ينطقها. فَتَلَ البطاقة بين يديه، كما ألقى نظرة خاطفة إلى جواز السفر الذي قدّمه الوافد مع البطاقة، ثم هزَّ كتفيه قائلًا لنفسه أنه لم يسبق أن قدّم أحد من زوّار فندق «فيرسال» بطاقة الزيارة الشخصية. ثم ألقى بهما في درج الطاولة وراح يحدّق من جديد في المرآة في إطار فضي حليبي موجودة على الطاولة، وهو يسرِّح شعره الكثيف بمشط. كان يرتدي معطفًا طويلًا وحذاء نظيفًا، كانت الشريطة الذهبية على قبعته متسخة. كان الفندق رديئًا إلى أبعد حد.

كان كاديمير ستانيسلافوفيتش قد غادر كييف إلى موسكو في الثامن من شهر أبريل، بناء على برقية من شخص ما كانت تتضمن كلمة واحدة فقط: «في العاشر». استطاع أن يتدبّر أمر النقود بطريقة ما، فجلس في مقصورة القطار من الدرجة الثانية،

t.me/t_pdf مكتبة

ومع أن المقصورة كانت رمادية وباهتة، لكنها منحته إحساسًا أكيدًا بالرفاهية وبالراحة. كان القطار مدفّأً أثناء السفر؛ وقد دفع الدفء في العربة بالإضافة للرائحة الصادرة من أنابيب جهاز التدفئة، إلى جانب الطرْق القاسي لمطارق العجلات، كاديمير ستانيسلافوفيتش لأن يتذكّر أيامًا أخرى. كان يُخيّل له في بعض الأحيان كما لو أنّ فصل الشتاء قد عاد، وأن زوبعة ثلجية ناصعة البياض راحت تنثر بقايا القش أشقر اللون في الحقول وبرك الماء الكبيرة بلون الرصاص، حيث راح يسبح فيها بطٌّ برّي؛ بيدَ أنّ تلك الزوبعة كثيرًا ما كانت تتوقف فجأة، ويذوب الثلج فتنكشف الحقول، ليظهر من خلف الأشجار ضوء غامر، وعندئذ تصبح الأرصفة المبللة في محطات القطار سوداء كالحة، وتنطلق الغربان في النعيق على أشجار الحور العارية. كان كاديمير ستانيسلافوفيتش يخرج في كلّ محطة يتوقف فيها القطار إلى البوفيه، ويعود إلى القطار حاملًا الجرائد بيديه، لكنه لم يكن يقرؤها وإنما كان يجلس غارقًا في دخان سجائره الثخينة، وقد راحت تحترق بقوّة ومع شرارات، دون أن يتبادل الحديث مع أي من جيرانه في المقصورة -وهم من يهود أوديسا كانوا يلعبون الورق طوال الطريق- ودون أن ينطق بكلمة واحدة. كان يرتدي معطفًا خريفيًا مع جيوب مبطّنة، ويضع على رأسه قبعة أسطوانية قديمة جدًّا من قماش التشيريمين* وحذاءً جديدًا، ولكنه من النوع الرخيص والخشن. أمّا يداه فقد كان

* أو الكريب بالفرنسية crêpe - نوع من النسيج المصنوع من الحرير أو الصوف ويكون رقيق الملمس ذا سطح هش أو مموج. المترجم

واضحًا أنهما يدا شخص مدمن على الكحول ومتشرّد مزمن يعيش في الأقبية، ولذلك كانت يداه ترتجفان عندما كان يشعل عود الثقاب. كما كانت أشياء أخرى تشهد على فقره وإدمانه: غياب حلقات تثبيت الأكمام، وياقة ورقية مهترئة ورثّة، وربطة العنق القديمة، بالإضافة إلى الوجهِ المنتفخ والمجعّد إلى أقصى درجة، والعينين الدامعتين بلون أزرق فاتح. كان فوداه مطليين بمادة رديئة بنّية اللون، وكانت هيئته تبدو غير طبيعية. بل كان منظره يبدو متعبًا ومحتقرًا.

وصل القطار إلى موسكو في اليوم التالي، متأخرًّا عن الموعد لسبع ساعات كاملة. كان الطقس متقلبًا وغير واضح، ولكنه أفضل، وجافًا أكثر من الطقس في كييف، مع شيء ما في الهواء مثير للقلق. استأجر كاديمير ستايسلافوفيتش عربة جر من دون أن يساوم صاحبها على الأجرة، وطلب أن ينقله إلى فندق «فيرسال» مباشرة. «أنا يا أخي -قال خارقًا صمته فجأة- أعرف ذلك الفندق منذ أيام الدراسة». غادر فندق «فيرسال» فورًا بمجرّد أن نقلوا سلّة أغراضه المربوطة بحبل إلى الغرفة.

حلّ المساء. كان الهواء دافئًا، وبدأت الأشجار السوداء في البولفارات تصبح خضراء، كما كان هناك الكثيرون من الناس في كلِّ مكان... كان الشخص الذي عاش ودمّر حياته يشعر بالوحدة في ذلك المساء الربيعي في مدينة غريبة مزدحمة بالناس! اجتاز كاديمير ستانيسلافوفيتش مشيًا على الأقدام بولفار تفيورسكي بأكمله، ورأى من جديد في البعيد ذلك

التمثال الفولاذي لبوشكين وقد استغرق في التفكير، كما شاهد الرؤوس الأرجوانية لكاتدرائية آلام السيد المسيح. تناول فنجانًا من الشوكولاتة الساخنة في مقهى فيليبوف، وهو يتصفح المجلات الساخرة الممزقة. خرج ثمَّ توقف متردّدًا، وراح ينظر إلى اللافتة المضيئة الكبيرة والبارزة للسينما وهي تتلألأ في نهاية منتزه تفيورسكي في هذا الغسق الأزرق. ثم ذهب راكبًا إلى المطعم في البولفار الذي كان يعرفه أيضًا منذ أيام دراسته. كان يقلّه حوذي عجوز محدودب مثل قوس، حزين ومتجهم غارق في ذاته، في شيخوخته، وفي همومه وأفكاره الكئيبة، وقد راح بطريقة مرهقة ومضجرة يساعد حصانه الكسول طوال الطريق بكامل كيانه، وهو يغمغم له باستمرار بكلمات غير واضحة، وفي بعض الأحيان كان يوبخّه بقسوة، وفي نهاية المطاف أنزل عن كتفيه ثقلًا آخر وتنهّد بعمق وهو يستلم النقود.

– لم أنتبه، وظننت أنك تريد الذهاب إلى فندق «براغ»*. قال الحوذي وهو يدير الحصان ببطء وحتى بنبرة من عدم الرضا، على الرغم من أن فندق «براغ» كان أبعد بكثير.

– كما أنني أتذكّر، أيها العجوز، فندق «براغ» أيضًا. أجابه كاديمير ستانيسلافوفيتش. من الواضح أنك تعمل سائق عربة للنقل في موسكو منذ مدة طويلة!

* وردت في النص الأصلي كتابة غير دقيقة لاسم الفندق حيث لفظ الحوذي حرفb-Braga بدلاً من حرف p-Praga للإشارة إلى أنه لا يعرف الاسم الصحيح للفندق... فاقتضى التنويه. المترجم

- هل تقصد أنني أقود عربة؟ سأل العجوز. لقد مضى اثنان وخمسون عامًا وأنا أعمل في هذه المهنة.

- هذا يعني أنك لا بدَّ أن تكون نقلتني أنا أيضًا. قال كاديمير ستانيسلافوفيتش.

- لعلّي قمتُ بنقلك بالفعل -ردّ العجوز باقتضاب- هناك الكثيرون من البشر في هذه الدنيا، ولا يمكنني أن أتذكّر الجميع...

لم يبقَ من الفندق القديم كما كان يعرفه كاديمير ستايسلافوفيتش سوى الاسم. لقد تحوّل الآن إلى مجرّد مطعم وملهى كبير ورخيص. كان ثمة كرة إنارة كهربائية تتوهج فوق المدخل، بضوء سحلبي مزعج، ينير الحوذيين المتهورين الطائشين من الدرجة الثانية، الذين يتعاملون بوقاحة وبلا شفقة مع جيادهم المنهكة والهزيلة وقد راحت تخور بقوّة وهي تجري. كانت تقف في المدخل الرطب أصص مع نباتات استوائية، من تلك التي يتم نقلها على منصات من جنازات التشييع إلى الأعراس وبالعكس. هرع من غرفة الخدم صوب كاديمير ستانيسلافوفيتش على الفور بضعة أشخاص، وكانوا جميعًا بشعر كثيف كما هو الحال عند البواب في مدخل «فيرسال». كانت القاعة الكبيرة المائلة إلى اللون الأخضر ومع عدد كبير من المرايا العريضة ومع مصباح قرمزي اللون مشتعل في إحدى الزوايا، خالية من الزوّار، ولم يكونوا قد أشعلوا سوى

عدد محدود من قناديل الزيت. بقي كاديمير ستانيسلافوفيتش جالسًا بمفرده لمدة طويلة. نشأ إحساس كما لو أن الظلام قد تأخّر خلف النوافذ التي تغطيها ستائر بيضاء في ذلك المساء الربيعي الطويل، إذ راحت تصل من الشارع أصوات طَرْق لحوافر الأحصنة على الرصيف، كما راحت نافورة صغيرة وسط القاعة ترش الماء برتابة في حوض مائي، حيث كانت تسبح أسماك ذهبية اللون من النوع الرديء، وقد أنارتها أضواء من الأسفل بطريقة ما، عبر الماء. قام الخادم في المطعم بتقديم أدوات الطعام، والخبز ودورق صغير من الفودكا الباردة. راح كاديمير ستانيسلافوفيتش يشرب الفودكا من دون مقبلات، حيث كان يبقيها لبرهة في فمه قبل أن يبلعها، وبعد أن يبلعها كان يشدّ على أسنانه، ويشمُّ الخبز الأسود كما القَرِف. بغتةً، لدرجة أنها بعثت الرعب لديه، هدرت في جميع أرجاء القاعة أصوات غناء صادرة عن آلة، خليط من الأغاني الروسية، تارة صاخبة ومستهترة بطريقة مبالغ بها، وتارة رقيقة وحانية ومفعمة بالحزن العميق والشفيف أكثر من اللازم... فاحمّرت عينا كاديمير ستانيسلافوفيتش وطفرت الدموع منهما.

بعد ذلك جلب له رجل جورجي شائب سيخًا من لحم الكباب نصف مشوي يفوح برائحة لذيذة، ثم قام مع غندرة فاسقة بتقطيع اللحم في الصحن. وبقصد الإفصاح عن تواضع آسيوي بشكل أكبر، قام بنفسه برش البصل الأخضر والملح

ومسحوق بني اللون من البرباريس*، بينما كانت الآلة الموسيقية تتابع زعيقها في القاعة الخالية محرّضة على القيام برقص cakewalk** المصحوب بانحناءات حادة وبقفزات قوية. بعد ذلك قدّموا لكاديمير ستانيسلافوفيتش جبنة روكفور***، ونبيذًا أحمر، ثم القهوة مع مياه معدنية وكأسًا من الليكيور. كانت الآلة قد سكتت منذ مدة طويلة، إذ راحت بدلًا منها تعزف على المسرح فرقة موسيقية من عازفات ألمانيات في فساتين بيضاء؛ أصبحت القاعة المضاءة بشكل كبير والمكتظة بالناس حارّة، كما أنها بهتت من جراء الدخان الكثيف للسجائر وباتت مشبعة بروائح مختلف الأطعمة؛ راح الخدم يجرون بسرعة، كما راح الأشخاص الثملون يطلبون لفافات السيجار التي كانت تثير الغثيان؛ كما بدأ النُدُل يغدقون اهتمامهم الزائد مقرونًا باحترام صارم للذات. كان ثمة شيء ما ضخم وصاخب ومعقّد ينعكس في زجاج المرايا وفي قعر السوائل العكرة، لذا خرج كاديمير ستانيسرفوفيتش من القاعة الخانقة أكثر من مرة إلى الممرات الباردة وإلى دورة المياه حيث كانت تفوح بطريقة عجيبة رائحة

* البَرْباريس أو الزَّرْشكُ: جنس من النباتات، وهو اسم لعدد من الشجيرات الشوكية الواطئة. وهذه الشجيرات لها أوراق حمراء وثمار زاهية في الخريف. والبرباريس العادي ينمو بشكل طبيعي في شمال أوروبا، وكذلك ينمو برياً في شرق الولايات المتحدة. يستعملها الناس لتزيين منظر الحدائق. استخدم نبات البرباريس في الطب العربي كقابض عاقل للبطن مفيد في حالات الإسهال وقروح الأمعاء ونزيفها، ونزف البواسير. واعتبر مفيداً لأصحاب المزاج الصفراوي، ويستعمل لقمع الصفراء في الجسم، وكسر حدتها. وكملطف لهيجان الدم في الفصول الحارة. كما اعتبر مفيداً للهضم، مقوياً للكبد والمعدة. وحتى في حالات السموم كان البرباريس يعتبر مفيداً خصوصاً بمزجه مع ما يشابه بخواص العقاقير كالأترج والليمون. المترجم

** حرفيًا معناها: نزهة مع الفطيرة. رقص زنجي مصحوب بالعزف على غيتار أو آلات وترية أخرى كالمندولين... الخ المترجم

*** الروكفور Roquefort: جبن فرنسي، يعتبر من أقدم أنواع الأجبان الفرنسية وطريقة تحضيره خاصة جداً حيث تتبع وصفة دقيقة كي تسمح بإنتاج الجودة المطلوبة. المترجم

شبيهة برائحة البحر، فكان يتمشى قليلًا في الهواء النقي ثم يعود ويطلب النبيذ لنفسه من جديد. في الساعة الثانية، خرج وهو يغمض عينيه ويتنشق الهواء المنعش عبر منخريه ساحبًا إياه إلى رأسه المخمور، ثم ركب عربةً عالية لها إطارات منفوخة وانطلق بسرعة كبيرة إلى خارج المدينة، إلى بيت دعارة، حيث شاهد هناك صفًّا طويلًا لا ينتهي من المصابيح التي تبقى مشتعلة إلى وقت متأخر جدًّا، وقد راحت تعدو إلى مكان ما أسفل الجبل ومن ثم تصعد الجبل من جديد، ولكنه رآها كما لو أنه لم يكن هو الذي يشاهدها وإنما شخص آخر. كاد أن يتشاجر في بيت الدعارة مع رجل نبيل وبدين راح يهاجمه ويصرخ أنَّ روسيا الفكرية بأكملها تعرفه. بعد ذلك استلقى وهو بكامل ملابسه على سرير عريض يغطيه لحاف مبطّن من قماش الأطلس، في غرفة صغيرة ينيرها بشكل باهت من السقف مصباح أزرق، وكانت الغرفة تفوح برائحة صابون عطر، وفيها فساتين معلّقة على مسمار في الباب. كان يوجد إلى جانب السرير صحن من الفواكه؛ كانت الفتاة التي وقع على عاتقها واجب القيام بخدمة وتلبية طلبات كاديمير ستانيسلافوفيتش، صامتة وهي تلتهم إجاصة بنهم كبير وبتلذذ، بعد أن تقطّعها إلى شرائح بواسطة سكين. في حين أنَّ صديقتها ذات اليدين الغليظتين العاريتين، وفي قميص فقط كان يجعلها شبيهة بفتاة صغيرة السن، راحت تخطُّ رسالة بطريقة سريعة على منضدة الزينة، دون أن تعيرهما أدنى اهتمام. كانت تكتب وتبكي، ولكن عمَّ؟ هناك بشر كثيرون في هذا العالم، ولا يمكنك أن تعرف كلَّ شيء.

استيقظ كاديمير ستانيسلافوفيتش في العاشر من أبريل في وقت متأخر. وبناءً على الخوف الذي بدا عليه وهو يفتح عينيه، يمكن أن نفهم أنّه صُعق لبرهة من الزمن لمجرّد إدراكه أنه موجود في موسكو، ولِما حدث ليلة أمس. فهو لم يرجع إلى الفندق قبل الخامسة صباحًا. كان يترنح وهو يصعد درجات السلّم في فندق «فيرسال»، ولكنه سار إلى غرفته بالضبط من دون أن يخطئ قاطعًا النفق الطويل للممر النتن، حيث كان يضيئه في بدايته فقط قنديل بائس. كانت توجد أمام جميع الأبواب أحذية. كان جميع النزلاء غرباء، لا يعرف واحدهم الآخر. فجأة فُتِح أحد الأبواب، لافحًا كاديمير ستانيسلافوفيتش بما هو فظيع تقريبًا، حيث لاح منه رجل عجوز في رداء منزلي أشبه بممثلٍ رديء، راح يلعب دور البطولة في مسرحية «يوميات إنسان مجنون». رأى كاديمير ستانيسلافوفيتش مصباحًا تحت غطاء أخضر اللون، وغرفة مكتظة بالأغراض، عبارة عن وكرٍ لنزيلٍ وحيد يقيم فيها منذ زمن طويل، وفيها أيقونات في الزاوية مع عدد كبير جدًّا من العلب التي تستخدم لحفظ لفافات السجائر الفارغة من التبغ، بحيث إنها كانت موضوعة إلى جوار الأيقونة ومسطّرة الواحدة فوق الأخرى حتى كادت أن تبلغ سقف الغرفة... هل يُعقَل أن يكون هذا الشخص هو ذاك المخبول الذي قام بتأليف كتاب عن سير القديسين، والذي كان يعيش في فندق «فيرسال» قبل ثلاث وعشرين سنة؟ كانت الغرفة الصغيرة والمعتمة لكاديمير ستانيسلافوفيتش خانقة إلى حدٍّ فظيع بسبب الجفاف اللاذع

والفواح. كان الضوء يتسلل ضعيفًا من الممر إلى ظلام الغرفة عبر نافذة صغيرة فوق الباب. دخل كاديمير ستانيسلافوفيتش إلى وراء حاجز في الغرفة، خلع قبعته الأسطوانية عن شعره القليل والمطلي بمادة مثبّتة، ثم نزع معطفه وألقى به على رأس السرير العاري. كان كلُّ شيء يدور من تحت قدميه، وبمجرّد أن استلقى في السرير شعر كما لو أنه سقط في هوّةٍ سحيقة، ليغفو بعد ذلك على الفور. كان يشعر في حلمه طوال الوقت بأنَّ ثمة رائحة نتنة لمغسلة معدنية تقوم بالقرب من وجهه تمامًا، في حين أنه كان يرى النهار ربيعيًا وأن الأشجار مزهرة، كما رأى قاعة في منزل كبير لأسرة نبيلة، وعددًا كبيرًا من الناس راحوا ينتظرون وصول المطران بتوجس وبقلق، كان هذا الانتظار يسبب له الألم والإرهاق طيلة الليل. بدأ الجرس في هذه الأثناء يقرع في ممرات فندق «فيرسال»، وراح الناس يركضون ويتصايحون. أشرقت الشمس من خلف الحاجز في الغرفة، ومن خلال الزجاج المزدوج والمغبّر للنافذة، فأصبح الجو دافئًا تمامًا. نزع كاديمير ستانيسلافوفيتش سترته، وقرع الجرس ثم راح يغتسل. هرع إليه الخادم في الطابق، صبيٌّ ذو نظرة ثاقبة، مع قبعة من فراء الثعلب على رأسه، في مئزر وقميص فلاحي روسي زهري اللون.

- هات لي كالاتش*، وشاي وليمون. قال له كاديمير ستانيسرفوفيتش دون أن ينظر نحوه.

* كعك أو معجنات دائرية الشكل من الخبز الأبيض... المترجم

– وهل تريدون السكر من عندنا للشاي؟ سأل العامل في الطابق بثقة وبطلاقة موسكوفية.

وبعد لحظات كان يدخل مسرعًا وهو يحمل سماور يغلي على يديه وقريبًا من كتفه، ثم قام بسرعة كبيرة بمدِّ غطاء على الطاولة المستديرة قرب الأريكة، ووضع صينية مع كأس وصحن خاص بتنظيف الأواني وبنفايات الشاي. طرق كاديمير ستانيسلافوفيتش بقاعدة السماور على الصينية إلى أن يغلي الشاي، وإذ بنظره يسقط على إعلان في الجريدة يقول أنه تمّ في يوم أمس حمل شخص مجهول الهوية وفاقد للوعي... «تمَّ نقل المصاب إلى المستشفى...» قرأ ثم رمى الجريدة جانبًا. كان يشعر بنفسه مرتخيًا وواهنًا. نهض وفتح النافذة، كانت تطل على فناء، فهبّت عليه رائحة النضارة والمدينة، ووصلت إلى مسامعه صرخات الباعة المتجولين الصادحة والمتأنقة، وأجراس الجياد الرنانة خلف البيت المقابل للفندق، بالإضافة إلى قرقعة العربات التي تجرها جياد والموسيقى الهادرة لأجراس الكنائس. كانت المدينة قد بدأت حياتها الصاخبة والواسعة في ذلك النهار الربيعي المشرق. عصرَ ليمونة كاملة في كأس الشاي، وشرب هذا السائل العكر والحامض بشهية كبيرة، ثم ذهب من جديد إلى وراء الستارة الحاجز، فاختفت الضوضاء في فندق «فيرسال». قرأ على عجل إعلانًا لإدارة الفندق كان معلّقًا على الحائط: «تُحسَب كل ثلاث ساعات يمضيها الزبون في الفندق يومًا كاملًا»، ثم سمع خشخشة فأر

في خزنة الثياب وهو يجرُّ قطعة سكّر متروكة من نزيل سابق. وهكذا بقي كاديمير ستانيسلافوفيتش ممدّدًا وهو نصف نائم خلف الستارة إلى أن غابت الشمس عن الغرفة وإلى أن هبّت من النافذة نضارة أخرى، ما قبل مسائية هذه المرة.

نهض عندئذ وقام بترتيب هندامه، حيث فكّ السلّة وبدّل ملابسه الداخلية، كما أخرج منديلًا من النوع الرخيص، ولكنه نظيف، ومسح الفراك اللامع بالفرشاة، وضع القبعة الأسطوانية على رأسه وارتدى معطفه، ثم أخرج من جيبه الممزق جريدة مهترئة من كييف عدد الخامس عشر من يناير، ورمى بها إلى الزاوية. بعد أن أكمل ارتداء ثيابه، وبعد أن مشّط فوديه بمشط تلويني، قام باحتساب ما لديه من نقود، كان يوجد في محفظة نقوده مبلغ أربعة روبلات وسبعة قروش فقط، وبعد ذلك غادر الفندق. في تمام الساعة السادسة مساء كان يقف أمام كنيسة صغيرة قديمة ومنخفضة في شارع مولتشانوفكا. كان ثمة شجرة مترامية الأغصان ذات خضرة ناعمة تقوم خلف سور الكنيسة، حيث راح أطفال يلعبون -كان الجورب الأسود الطويل لطفلة نحيلة راحت تقفز على حبلةٍ لا ينفك يسقط، وكانت تجلس على المقاعدِ أمهات مرضعات في فساتين روسية، وأمامهن عربات فيها أطفال رضّع نائمون. كانت الشجرة مكتظة بالعصافير، كما كان الهواء لطيفًا منعشًا أشبه بنسيم صيفي تمامًا، إلى درجة أنَّ الغبار نفسه كان يفوح برائحة صيفية، وكانت السماء مشرقة في البعيد خلف البيوت

بلون الذهب عند الغروب، ما خلق شعورًا بأنَّ الدنيا حافلة بالفرح وبالفتوّة وبالسعادة. كانت الثريا قد أضاءت الكنيسة، وكان ثمة منبر، وأمام المنبر توجد سجادة صغيرة. نزع كاديمير ستانيسلافوفيتش قبعته الأسطوانية بحذر شديد لكي لا يُفسد تسريحته، ودخل إلى الكنيسة على حياء وبتردد، فقد مضى ثلاثون عامًا دون أن يزور أي كنيسة، ثم اختار لنفسه مكانًا في الزاوية، بحيث يستطيع أن يرى الشخصين اللذين سوف يعقد قرانهما. راح يتأمل القناطر المزخرفة، ويصعد بعينيه نحو القبّة، وكانت كلّ حركة يقوم بها، وكل شهيق يفعله يتردد كالصدى في أجواء الصمت. كانت الكنيسة التي ترفل بالذهب، تنتظر مع أصوات فرقعة للشمع المحترق. ها هم القساوسة، وأفراد جوقة المنشدين، تتبعهم العجائز والأطفال وضيوف العرس المتأنقون والأشابين مشغولو البال، قد بدؤوا يدخلون وهم يرسمون شارة الصليب بمنتهى اليسر والعفوية. وعندما سُمِعت جلبة قرب مدخل الكنيسة، قرقعت عجلات عربة فاخرة راحت تقترب فاستدار جميع الحاضرين باتجاه الباب، ثم انفجر نشيد استقبال: «تقدّمي يا حمامتي!». عندئذ امتقع وجه كاديمير ستانيسلافوفيتش وأصبح لونه شاحبًا مثل الموتى من جراء خفقان قلبه، لتقدّم بطريقة لا شعورية إلى الأمام. ثم مرّت قريبة جدًّا منه، إلى درجة أنها لامسته بطرحتها العرائسية، ولفحته بعطر أزهار الزنبق تلك التي لم تعرف حتى بوجوده في هذه الدنيا، مرّت وقد أمالت رأسها الفاتن إلى جانب، تغمرها الورود والعطور الفواحة، كانت ناصعة البياض وطاهرة مثل

أميرة تسير إلى المناولة الأولى في حياتها. أما عريسها الذي كان ينتظرها، فقد كان قصير القامة، عريض المنكبين، مع قطعة مسطحة من فرو الأرنب صفراء اللون على قمة رأسه، ولم يكد يراه كاديمير ستانيسلافوفيتش. وهو لم يكن يرى أمام عينيه طيلة فترة الإكليل سوى شيء واحد: رأسٌ محنيٌّ وسط الزهور والطرحة، ويدٌ صغيرة تمسك وهي ترتجف شمعة مشتعلة ملفوفة بشريطة بيضاء مع أنشوطة.

في الساعة العاشرة ليلًا كان قد عاد إلى غرفته في الفندق. كان معطفه مشبعًا برائحة الهواء الربيعي. بعد أن خرج من الكنيسة شاهد عند مدخلها زجاج عربة فاخرة مفروشة من الداخل بالساتان الأبيض، وقد انعكس عليه غروب الشمس. ثم لاح من خلف ذلك الزجاج للمرة الأخيرة وجه تلك التي انتزعوها منه إلى الأبد وأخذوها إلى وجهة مجهولة. راح بعد ذلك يتسكع لفترة طويلة في أزقة لا يعرفها، ليخرج منها إلى بولفار نوفينسك. وها هو الآن يخلع معطفه ببطء وبيدين مرتجفتين، ثم وضع على المنضدة كيسًا ورقيًا مع خيارتين خضراوين، لا يعرف لماذا اشتراهما من بائع متجول. كانت الخيارتان تفوحان برائحة الربيع حتى من خلال الورق، كما راح هلال شهر أبريل الذي كان يقف عاليًا في قبة السماء التي لم تصبح معتمة بعد، يلمع مثل الربيع بلونِ سائلٍ فضي من خلال القسم العلوي لزجاج النافذة. أشعل كاديمير ستانيسلافوفيتش الشمعة وأضاء بها بطريقة مثيرة للحزن مأواه

الفارغ والعابر، ثم جلس على الأريكة فشعر بطراوة المساء على وجهه... بقي جالسًا على هذه الحال مدة طويلة جدًّا. لم يقرع الجرس، ولم يطلب شيئًا، بل أغلق الباب بالمفتاح، وهذا ما أثار الريبة عند الخادم في الطابق الذي شاهده فيه وهو يجرُّ قدميه داخلًا إلى الغرفة، وكيف أنه سحب المفتاح من الباب لكي يقفله من الداخل. اقترب العامل في الطابق أكثر من مرة على رؤوس أصابعه من باب الغرفة، وراح ينظر من ثقب الباب. كان كاديمير ستانيسلافوفيتش يجلس على الأريكة وهو ينتحب ويمسح عينيه بمنديل، كان يبكي بمرارة شديدة، ويسكب دموعًا غزيرة، لدرجة أن الصبغة بنية اللون سالت عن سالفيه ولطخّت وجنتيه.

قام ليلًا بانتزاع الحبل من ستارة النافذة، ثم عمد دون أن يدرك ما يفعله، إلى ربط الحبل إلى كلّاب علاقة الثياب. لكن الشمعة وقد احترقت بالكامل، أخذت تتأجج بقوة كبيرة، فراحت تسبح وترتجف ظلال قاتمة غريبة في أرجاء الغرفة المغلقة بالمفتاح...

كلا، لا أملك الشجاعة والقوة لأن أنتحر.

غادر الفندق في صباح اليوم التالي إلى محطة القطار قبل ثلاث ساعات من الموعد المحدد لانطلاق القطار. راح يتمشى في المحطة بين المسافرين بهدوء مُسبَل العينين، تارة يتوقف بشكل مفاجئ أمام هذا، وتارة أمام ذاك، وهو يقول

بصوت خافت وبنبرة واحدة متساوية خالية من أي تعابير ولكنها سريعة إلى درجة كبيرة:

- من مال الله... أنا في وضع ميئوس منه. ساعدني بثمن تذكرة السفر حتى مدينة بريانسك... ولو ببضع كوبيكات.

كان البعض يعطونه وهم مرتبكون وعلى عجل، محاولين ألا ينظروا إلى قبعته الأسطوانية وياقة معطفه المخملية البالية، ولا إلى وجهه الرهيب مع فودين مبللين بلون أرجواني.

بعد ذلك كان يختلط مع الحشد الذي راح يهرول باتجاه باب الخروج إلى رصيف المحطة ويتلاشى فيه، في حين أن العاملين في فندق «فيرسال» كانوا في هذا الوقت يحملون السطل من تحت المغسلة في الغرفة التي كانت مستأجرة من قبله لمدة يومين كاملين، كما قاموا بفتح درف النافذة أمام أشعة الشمس الأبريلية، وراحوا يدفعون الكراسي بفظاظة وهم ينظفون الأرضية ويجمعون الأوساخ. ومع الأوساخ، قاموا برمي قصاصة الورق التي نسيها مع الخيارتين بعد أن سقطت تحت المنضدة، تحت الغطاء الذي سقط عنها، وقد كتب فيها:

«أرجو ألا تتهموا أحدًا في موتي...».

١٩١٦

مكتبة
t.me/t_pdf

الدروب المعتمة

في يوم خريفي ماطر وبارد، وعلى واحدة من الدروب الكبيرة لمدينة تولا المغمورة بالأمطار والمليئة بأخاديد سوداء كثيرة، اقتربت عربة نقل بأربع عجلات ملطخة بالوحل وبغطاء مرفوع قليلًا، تجرّها ثلاثة جياد عادية ربطت أذيالها بسبب الأوحال، من كوخ طويل مؤلف من قسمين. كان أحدهما عبارة عن محطة بريد حكومية، بينما كان القسم الثاني مضافة خاصة يمكن للمرء أن يحصل فيها على قسط من الراحة أو قضاء الليل، وأن يتناول طعام الغداء أو أن يشرب الشاي. كان يجلس في مقعد الحوذي رجل سمين يرتدي معطفًا صوفيًا سميكًا مزنّرًا بحزام، ذو سحنة جدية وداكنة ولكن مع لحية سوداء كالقطران غير كثيفة، فكان يبدو مثل قاطع طريق من عصر قديم. أما في العربة فكان يجلس كهل عسكري ممشوق القامة يضع على رأسه سِدارة كبيرة، ويرتدي معطفًا رماديًا من طراز معاطف نيكولاي مع ياقة واقفة من فرو السمور، كان حاجباه ما زالا سوداويَن ولكنَّ شاربيه أبيضان يتصلان مع فودين أبيضين أيضًا: كان ذقنه حليقًا فكان شكله الخارجي

على العموم قريبًا جدًّا من شكل القيصر نيكولاي الثاني، وقد كان ذلك الشبه شائعًا جدًّا في أوساط العسكريين إبَّان عهده؛ كما كانت نظرته أيضًا استفسارية، صارمة، وفي الوقت نفسه مُتعبَة.

عندما توقفت الجياد، أخرج المسافر ساقه من العربة في حذاء عسكري مع رقبة متساوية، ثم ركض إلى شرفة الكوخ وهو يمسك طرفي المعطف بيدين محشورتين في قفازات جلدية.

- إلى اليسار يا صاحب السعادة. صاح الحوذي من مقعده بصوت أجش، فانحنى السيّد قليلًا أمام العتبة بسبب طوله الفارع، ودخل إلى ردهة الكوخ، ومن ثمَّ إلى الغرفة على اليسار.

كانت الغرفة دافئة وجافة، نظيفة ومرتّبة بعناية: كانت ثمة أيقونة جديدة مذهّبة في الزاوية اليسرى، وتحتها تقف طاولة عليها غطاء نظيف وخشن، وإلى الخلف من الطاولة كانت توجد مقاعد مغسولة بشكل جيّد، أما موقد المطبخ الذي كان يشغل الزاوية اليمنى البعيدة، فكان يبدو جديدًا وقد تمّ طلاؤه مؤخرًا. وعلى مقربة منه كان يوجد ما يشبه الأريكة يغطيها لحاف أرقش وتستند من مكانها إلى جنب الموقد؛ كانت تفوح من خلف باب الموقد رائحة لذيذة لحساء من ملفوف مطبوخ ولحم العجل وورق الغار.

رمى المسافر معطفه على المقعد وبدا قدّه ممشوقًا أكثر في البدلة العسكرية وحدها وفي الحذاء، ثم نزع القفازات والسِدارة ومرّر يده النحيلة الشاحبة على رأسه بطريقة متعبة. كان شعره الشائب مع خصلات على الصدغين تمتد حتى زاويتي العينين، مجعّدًا بعض الشيء، وكان وجهه المتطاول الجميل مع عينيه القاتمتين، ما زال يحتفظ في بعض الأماكن ببثور ناتجة عن الإصابة بالجدري. لم يكن يوجد أحد في الغرفة، فصرخ بصوت غير لطيف بعد أن قام بفتح باب المدخل قليلًا:

- إيه، هل من أحد هنا؟!

دخلت بعد ذلك على الفور امرأة بشعر أسود وبحاجبين أسودين أيضًا، وفوق ذلك فاتنة بدرجة لا تناسب عمرها، أشبه بامرأة غجرية مسنّة، مع زغب قاتم على شفتها العليا وعلى عنقها، وكانت تبدو رشيقة مع أنها ممتلئة مع صدر كبير تحت بلوزة حمراء، وبطن مثلث الشكل كما عند الإوزة، تحت تنورة صوفية سوداء.

- أهلا بحضرتك يا صاحب السعادة -قالت المرأة- هل تريد أن أقدم لك طعام الغداء أم الشاي فقط؟

ألقى المسافر نظرة سريعة إلى كتفي المرأة المدوَّرَين، وإلى قدميها الرشيقتين في حذاء تتري أحمر مستهلك، وأجاب بطريقة متقطعة غير مبالية:

- الشاي. هل أنتِ صاحبة النزل أم أنك تخدمين وحسب؟

- صاحبة النزل يا صاحب السعادة.

- هذا يعني أنك تديرين النزل بنفسك؟

- هكذا بالضبط يا صاحب السعادة.

- ولماذا ذلك؟ هل أنت أرملة لكي تديري هذا العمل؟

- لستُ أرملة يا صاحب السعادة، ولكن لا بدّ لي من مصدر للعيش. كما أنني أحب العمل المنزلي.

- هكذا إذن. هذا أمر جيّد. المكان نظيف وأنيق هنا.

كانت المرأة تتأمله طوال الوقت مليًّا وهي تنظر إليه شزرًا.

- كما أنني أحبُّ النظافة والترتيب. لقد نشأتُ في بيتٍ للنبلاء، فكيف يمكنني ألا أُحسِن التصرّف وبشكل لائق يا نيكولاي الكسييفيتش!

استدار بسرعة وفتح عينيه على اتساعهما واحمرّت وجنتاه:

- ناديجدا! هل هذه أنتِ؟ قال بلهجة سريعة.

- نعم، هذه أنا يا نيكولاي الكسييفيتش. أجابت المرأةُ.

- يا إلهي! يا إلهي! قال الرجل وهو يجلس على المقعد وراح يحدّق فيها مباشرة. مَن كان يتوقع ذلك؟! كم مضى من السنين دون أن نلتقي؟ حوالي خمس وثلاثين سنة؟

- بل ثلاثون سنة. عمري الآن ثمانٍ وأربعون سنة، وعمرك

حوالي الستين، كما أظن؟

- بلى، حوالي ذلك... يا إلهي، كم هو أمر غريب!

- وما هو الغريب يا سيدي؟

- كلُّ شيء، كلُّ شيء... لا يمكنك أن تقدّري الأمر كما يجب!

تلاشى التعب وغاب عنه التشتت، فنهض وراح يسير في أرجاء الغرفة بخطوة حازمة وهو يحدِّق إلى الأرضية. ثمّ توقف وراح يقول وقد اكتسى وجهه بالحُمرة:

- لم أعرف شيئًا عنك البتة منذ ذلك الحين. كيف وصلتِ إلى هنا؟ لماذا لم تبق لتعيشي في بيت السادة؟

- سرعان ما أطلق السادة حريتي من بعدك.

- ولكن أين مضيتِ تعيشين بعد ذلك؟

- إنه حديث طويل يا سيدي.

- تقولين أنك لم تتزوجي؟

- لا، لم أتزوج.

- لماذا؟ مع مثل هذا الجمال الذي تتمتعين به؟

- لم يكن بوسعي أن أفعل ذلك.

- ولماذا لم تكوني قادرة؟ ما الذي تريدين قوله؟

- كيف يمكنني أن أشرح ذلك. لا بدَّ أنكم تتذكرون* كم كنت مغرمة بكم.

احمرَّ إلى درجةِ أنّ عينيه أدمعتا وتجهّم، فقام وراح يمشي من جديد.

- كل شيء يمضي يا صديقتي -قال متمتمًا- الحب والشباب، كلُّ شيء، كلُّ شيء. إنها حكاية سخيفة ومألوفة. كلُّ شيءٍ ينطوي مع مرور الوقت. كيف تمّ التعبير عن ذلك في سفر أيوب؟ «لأَنَّكَ تَنْسَى الْمَشَقَّةَ. كَمِيَاهٍ عَبَرَتْ تَذْكُرُهَا»**.

- لكلٍّ ما يمنحه الربُّ يا نيكولاي الكسييفيتش. الشباب يمضي عند كلِّ إنسان، ولكن الحبَّ أمر مختلف تمامًا.

رفع رأسه، ثم وقف وقال مع ابتسامة أليمة:

- ولكن، لم يكن بإمكانك أن تحبيني طوال العمر!

- ولكني فعلتُ. بغض النظر عن المدة التي انقضت، بقيت أحيا مع أمل واحد فقط. كنتُ أعرف أنك*** تغيرت منذ زمن طويل ولم تعد كما كنت في السابق، وأنَّ الأمر لم يكن يعني بالنسبة لك شيئًا، ومع ذلك... لقد فات الأوان للعتب اليوم،

* الخطاب من قبل المرأة بصيغة الجمع لأنها من فئة اجتماعية أدنى. وتعبيرًا عن الاحترام أيضًا. المترجم

** سفر أيوب ١١: ١٦. المترجم

*** انتقلت في الترجمة إلى صيغة الخطاب بالمفرد لضرورة الترجمة... المترجم

لكنك مع ذلك كنت قاسيًا وبلا قلب عندما تخليت عني. لطالما نويت أن أنتحر بسبب الشعور بالإهانة فقط، ناهيك عن الأمور الأخرى. إذ كان ثمة وقت، يا نيكولاي الكسييفيتش، كنتُ أناديك فيه فقط: نيكولينكا*، وأنت كنت تناديني... هل تذكر؟ وكنت تطلب مني أن أقرأ مختلف القصائد والأشعار عن «الدروب المعتمة». أردفتْ مع ابتسامة خبيثة.

– ياه، كم كنتِ رائعة! قال وهو يهزُّ رأسَه. كم كنتِ مثيرةً وكم كنتِ فاتنة! كم كان قدّك ممشوقًا، كم كانت عيناك ساحرتين! ألا تتذكرين كيف كان الجميع ينظرون إليك خلسة؟

– أذكر يا سيدي. وأنت بدورك كنت رائعًا جدًّا ومميزًا. وأنا قد منحتك جمالي وشغفي وإثارتي. كيف يمكن نسيان ذلك؟

– آه! كلُّ شيء عابر. كلُّ شيءٍ يمضي ويُنسى.

– قد يمضي كلُّ شيء، ولكن لا يمكن نسيان كلّ شيء.

– اخرجي. قال وهو يستدير ويقترب من النافذة. أرجوك، اخرجي.

ثم أخرج منديله وضغط به على عينيه، ثم أضاف بلهجة سريعة:

– أرجو أن يغفر الربُّ لي وحسب. أما أنتِ، كما هو واضح، فقد سامحتِني.

* صيغة التحبب من نيكولاي، وهذا لا يقوله أحد لصاحب الاسم ما لم يكن عزيزًا عليه مثل أهله أو من هم أكبر منه من حيث الشأن والسن الخ... المترجم

اقتربت من الباب ثم توقفت وقالت:

- لا يا نيكولاي الكسييفيتش، لم أسامحك. وبما أنَّ الحديث تناول مشاعرنا، فسوف أقول لك بكلِّ صراحة: لم يكن بإمكاني أن أسامحك على الإطلاق. مثلما أنه لم يكن لدي مَن هو أعزّ منك في الدنيا في تلك الفترة، كذلك الأمر إذ لم يصبح لديَّ من أحبه فيما بعد. ولهذا السبب بالتحديد لم يكن يحق لي أن أسامحك. وما الفائدة من أن نتذكّر، لأنه يستحيل إعادة أو تصحيح ما حدث*.

- بلى، بالفعل، لا معنى لذلك، قولي لهم أن يقدّموا العربة. أجاب وهو يبتعد عن النافذة وعلى وجهه علامات الصرامة. ولكني سأقول لكِ أمرًا واحدًا: لم أكن سعيدًا في حياتي قط، في أي يوم من الأيام، وأرجو ألا تعتقدي ذلك. واعذريني إذا كنتُ سأجرح كبرياءك، ولكني سأقول بمنتهى الصراحة: كنت مغرمًا بزوجتي إلى درجة الوله. ولكنها خانتني، وتخلّت عني مع إهانة أشد وأقسى من تلك التي سبّبتها لكِ. كنت أعبد ابني، كان صغيرًا، وكم عقدتُ عليه من آمال! ولكن تبين أنّه وغدٌ، مبذِّر ووقح، بلا قلب وبلا شرف وبلا وجدان... وللعلم، هذه أيضًا حكاية عادية وتافهة، كوني بخير.

- يا صديقي الرائع والغالي. أعتقد أنني خسرتُ معك أثمن ما كنتُ أملكه في هذه الحياة.

* ورد في النص الأصلي قول روسي مأثور معناه: لا يمكن استعادة الموتى من مقبرة بالقرب من الكنيسة. فاقتضى التنويه. المترجم

اقتربت منه وقبّلت يدَه، وهو بدوره قبّل يدَها.

- دعيهم يقدمون العربة لي...

بعد أن انطلقت العربة، راح يقول في نفسه بتجهّم: «بلى، كم كانت فاتنة! رائعة بطريقة ساحرة!». تذكّر آخر كلماته مع نوع من العار، وأنه قبّل يدَها، وعلى الفور أحسَّ بالخجل من إحساسه بالعار. «ولكن، ألم يكن صحيحًا أنها منحتني أجمل لحظات حياتها؟».

لاحت الشمس باهتة عند الغروب. راح الحوذي يقود الجياد خببًا وببطء، وكان يبدِّل الآثار السوداء لمرور العربات باستمرار، فيختار الأقلَّ قذارة منها، وكان هو الآخر يفكِّر في أمرٍ ما. وأخيرًا قال بفظاظة مفعمة بالجدّية:

- بقيت المرأة، يا صاحب السعادة، تراقب من خلال النافذة طوال الوقت رحيلنا. لا بدَّ أنك تعرفها منذ زمن طويل على ما يبدو؟

- منذ زمن طويل، يا كليم.

- إنها امرأة ذكية جدًّا. ويقولون أنها تزداد ثراء باستمرار. وهي تُقرِض المال بالفائدة.

- لا قيمة لهذا الأمر.

- كيف ذلك؟ لا قيمة له! مَن ذا الذي لا يتمنى أن يعيش في

بحبوحة! وإذا ما أقرض المرء المال بلا طمع، لن يكون ثمة سوء في ذلك. ويقال أنها عادلة في هذا الشأن. ولكنها حاذقة وواثقة من نفسها! لا تلمْ إلّا نفسك في حال أنك لم تدفع مستحقاتها في الوقت المناسب.

- نعم، نعم، لا تلمْ إلّا نفسك... هيا أسرع من فضلك، لأنني أخشى أن نتأخر على القطار...

كانتِ الشمسُ الغاربة تسطع على الحقول المقفرة بأشعتها الصفراء، وكانت الخيول تخبط في برك الثلج. راح يراقب حدوة الأحصنة التي لاحت أمامه، عاقدًا حاجبيه السوداوين، ويقول في نفسه: «نعم، لا تلمْ إلّا نفسك. بلى، بالتأكيد، كانت أجمل اللحظات. وليست الأجمل وحسب، بل أكثرها سحرًا حقًا! لقد أزهر نبات الورد البري القرمزي في كلِّ مكان، وكان السير بين أشجار الزيزفون معتمة. ولكن، يا إلهي، ماذا كان سيكون فيما بعد؟ ماذا لو أنني لم أتخلَّ عنها؟ يا له من هراء! أن تكون ناديجدا هذه زوجتي وليست صاحبة نُزل للضيوف، أن تكون سيدة بيتي في بطرسبورغ وأمًّا لأطفالي؟». ثم أغمض عينيه وراح يهزُّ رأسه علامة النفي.

٢٠ أكتوبر عام ١٩٣٠

الأنفاس الناعمة

ظهر في المقبرة فوق تلّة ترابية صليبٌ جديد، متين وثقيل وأملس من خشب البلوط.

إنه شهر أبريل، بنهاراته الرمادية: يمكن رؤية الصلبان في المقبرة الشاسعة والوحيدة في المقاطعة من مسافة بعيدة، من خلال الأشجار العارية؛ كانت ريح باردة تطرق إكليل الأزهار الفخاري عند أسفل الصليب.

لقد وضعت في داخل الصليب ميدالية كبيرة نافرة من الخزف، وفي داخل الميدالية توجد صورة فوتوغرافية لتلميذة المدرسة بعينين مفعمتين بالحيوية وطافحتين بالمرح إلى حدِّ الإدهاش.

إنها صورة أوليا* ميشيرسكايا.

لم تكن البنيّة تتميز بشيء عن زميلاتها التلميذات في بدلاتهن المدرسية: وماذا يمكن أن يقال عنها، باستثناء أنها

* صيغة التحبب والدلع من اسم أولغا. المترجم

كانت فتاة حسناء وثرية وسعيدة، وأنها كانت ذكية ولكنها شقية وغير مبالية بتاتًا بتلك التعليمات والنصائح التي كانت تقدمها لها معلّمة الصف؟ ثم راحت تتفتح وتكبر بالساعات، كما يقال، وليس بالأيام. وفي الرابعة عشرَ من عمرها، أصبح لديها خصر نحيل وساقان رشيقتان، وبرز صدرها وكل تلك الأشياء الأخرى التي ما زال اللسان البشري عاجزًا عن وصف سحرها، وفي الخامسة عشرَ من عمرها باتت مشهورة بجمالها، مهما حاولت بعض صديقاتها أن يتأنقن في تسريحاتهن، ومهما كنَّ نظيفات ومهما كنَّ حصيفات في حركاتهن وتصرفاتهن! أما هي فلم تكن تخشى شيئًا، لا بقع الحبر على أصابع يديها، ولا احمرار وجنتيها، لا شعرها الأشعث ولا من انكشاف ساقها وركبتها عند السقوط بينما هي تجري. كان يأتي إليها خلسة، من دون فرط عناء ومن دون أن تبذل جهدًا كبيرًا، كلّ ما كان يجعلها مميزة في السنتين الأخيرتين من مجمل دراستها في المدرسة الداخلية، الكياسة والأناقة، النباهة والبريق الوقّاد في العينين. لم يكن أحد يجيد الرقص في حفلات الباليه كما تفعل ذلك أوليا ميشيرسكايا، ولم يكن أحد يتقن التزلّج على الجليد مثلها. لم تحظَ فتاة أخرى بنفس تلك الدرجة من الاهتمام والمغازلة في الحفلات الراقصة، كما حظيت هي، ولسبب ما لم يكن أحد مثلها محبوبًا من قبل تلاميذ الصفوف الدنيا. لقد أصبحت صبيّة بسرعة ودون أن تلفت انتباه أحد، وبنفس السرعة وخلسة ترسّخ مجدها في المدرسة، بحيث أنه بدأت تنتشر شائعات بأنها طائشة ولعوب، وأنها لا تستطيع العيش من

دون معجبين وعشاق، وأن التلميذ في المدرسة شيشين مغرم بها إلى درجة الوله، وأنها هي الأخرى مغرمة به، ولكنها متقلبة المزاج والهوى في تعاملها معه لدرجة أنه أقدم على محاولة انتحار.

لقد أمضت أوليا ميشيرسكايا آخر فصل شتاء في حياتها في مرح غامر إلى درجة الجنون، كما كانوا يرددون في المدرسة الداخلية. كان فصل الشتاء مليئًا بالثلج، ومشمسًا، وباردًا، وكانت الشمس تغيب باكرًا خلف غابة التنوب العالية الموجودة في الحديقة الممتلئة بالثلج في المدرسة. وكان التنزّه الرائع والبهي من كلِّ بدٍّ في شارع الكاتدرائية، يعِدُ دائمًا بطقس بارد ومشمس في اليوم التالي، بالإضافة إلى التزلّج في حديقة المدينة والمساء الوردي اللون، والموسيقى وذلك الحشد الكبير الذي ينزلق في كل الاتجاهات على باحة التزلّج، والذي كانت أوليا ميشيرسكايا بينه هي الأقل همًّا والأكثر بهجة وسعادة. وفي يوم من الأيام، أثناء الفسحة الكبيرة، وبينما كانت تعدو مثل عاصفة في قاعة الاجتماعات هاربة من تلميذات الصف الأول وقد رحْنَ يطاردنها بصخب وبفرح عامر، قاموا باستدعائها إلى مديرة المدرسة. توقفت عن الركض، والتقطت أنفاسها فأخذت شهيقًا عميقًا واحدًا فقط، ومن ثم قامت بحركة أنثوية مألوفة بترتيب شعرها، وشدّت زوايا الصدرية المدرسية إلى كتفيها، لتنطلق بعد ذلك راكضة نحو الأعلى بعينين مشرقتين. كانت مديرة المدرسة الشابة، ولكن بشعر

أشيب، تجلس بهدوء وهي تحوك الصوف خلف المكتب، تحت صورة للقيصر.

- مرحبًا يا آنسة ميشيرسكا*. قالت المديرة باللغة الفرنسية دون أن ترفع رأسها عن الحياكة. أنا مضطرّة، للأسف، مرة أخرى أن أدعوك إلى هنا لكي أتحدث معك بشأن سلوكك.

- أنا أصغي يا سيدتي. أجابت ميشيرسكايا وهي تقترب من المكتب وتنظر إليها بوضوح وبحيوية ولكن دون أن يعكس وجهها أيَّ تعبير، ثم جلست بيسرٍ وبرشاقة كبيرة تتقنها وحدها فقط.

- سوف تصغي إليَّ بطريقة سيئة، وقد تيقنت من ذلك، للأسف. قالت المديرة، ومن ثمَّ مدّت الخيط وأدارت لفّة الخيطان على الأرض المطلية باللّك، بينما راحت ميشيرسكايا تراقب اللفة الصوفية بفضول رافعة عينيها، فأردفت المديرة قائلة: أنا لن أكرِّر ما سبق وقلته لك، ولن أتكلّم بشكل مستفيض.

كانت ميشيرسكايا معجبة كثيرًا بغرفة المديرة النظيفة والكبيرة، والتي كانت طافحة بدفء لطيف جدًّا في هذه الأيام الباردة، صادر عن مدفأة هولندية رائعة، وبنضارة أزهار زنبق الوادي على طاولة المكتب، إلى أبعد حد. ألقت نظرة خاطفة إلى صورة القيصر الشاب، الذي تمَّ رسمه بكامل قامته، في وسط قاعة ما باذخة، وإلى مفرق الشعر الدقيق في شعر المديرة

* وردت في النص لأصلي صيغة خطاب رسمية من قبل المديرة إذ ألقت التحية على التلميذة بصيغة الجمع: السلام عليكم! فاقتضى التنويه.

حليبي اللون والمُموَّج بعناية فائقة، ثم لبثت صامتة.

قالت المديرة وقد بدأت تشعر بالتوتر في داخلها:

- لم تعودي فتاة صغيرة.

- صحيح يا سيدتي. أجابت ميشيرسكايا بمنتهى العفوية، مع بعض المرح تقريبًا.

- ولكنك لم تصبحي امرأة بعد أيضًا -أضافت الناظرة بمعنى بليغ أكثر، ما جعل وجهها الكامد يتورّد- وقبل كلّ شيء، ما هذه التسريحة؟ إنها تسريحة أنثى!

- ليس ذنبي يا سيدتي أن لديَّ شعر جميل. أجابت ميشيرسكايا ولامست بكلتا يديها شعرها المسرّح بعناية وبطريقة جميلة.

- آه، هكذا إذن، ليس ذنبك! قالت المديرة. أنت غير مذنبة بخصوص التسريحة، ولستِ مذنبة بما يخص هذه الأمشاط باهظة الثمن، كما أنك غير مذنبة لأنك تبددين نقود والديكِ على شراء حذاء بقيمة عشرين روبلًا! ولكني أكرِّر أنك تغفلين تمامًا عن أنك ما زلت تلميذة مدرسة وحسب...

وإذ بميشيرسكايا تقاطعها فجأة بكل تأدب، ودون أن تفقد عفويتها وهدوءها، وقالت:

- اعذريني يا سيدتي، ولكنك على خطأ: فأنا امرأة. والمذنب في ذلك هل تعرفين مَن؟ إنه صديق بابا وجاره، شقيقك الكسي

ميخائيلوفيتش ماليوتين. لقد حدث ذلك الصيف الماضي في القرية...

وبعد شهر من هذا الحديث، قام ضابط من القوزاق، قبيح الشكل وسوقي، بإطلاق النار على أوليا ميشيرسكا في محطة للقطارات، وسط حشد كبير من ركاب القطار الذي كان قد وصل للتو، مع العلم أن الضابط لم تكن له أي علاقة بتلك الدائرة التي كانت تقطن فيها القتيلة. وقد تأكدت بما لا يقبل الشك صحة الاعتراف الذي لا يُصدَّق، والذي شكّل صدمة للمديرة، والتي كانت ميشيرسكايا قد أدلت به لها: أعلن الضابط للقاضي الذي حقق في الحادثة بأن ميشيرسكايا استدرجته، وكانت على علاقة قريبة معه، وأنها أقسمت له بأن تكون زوجته، ولكنها في اليوم التي قتلت فيه، قالت له في محطة القطارات، بينما كانت تودعه أنها لم تكن مغرمة به في أي يوم من الأيام على الإطلاق، وأن جميع هذه الأحاديث بينهما بشأن الزواج كانت بقصد التهكم والسخرية منه، وأنها أعطته صفحة من دفتر يومياتها لكي يقرأها، وما كان مكتوبًا فيه يتعلق بفعلة ماليوتين.

- قرأت تلك الأسطر بسرعة، بينما كانت هي تتمشى في المحطة بانتظار أن أنتهي من قراءة الصفحة، فقمتُ بإطلاق الرصاص عليها وقتلتها.قال الضابط. وها هو دفتر اليوميات، انظروا ما الذي كان مكتوبًا فيه بتاريخ العاشر من يونيو من العام الماضي.

كان مكتوبًا في دفتر اليوميات ما يلي:

«الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. كنتُ أغطُّ في نوم عميق، وإذ بي أستيقظ فجأة... لقد أصبحتُ امرأة للتو! كان بابا وماما وأخي توليا قد غادروا إلى المدينة، وبقيتُ وحدي. كنتُ سعيدة جدًّا لأنني بمفردي! كنت أتنزه صباحًا في الحديقة، وفي الحقل، كما أنني ذهبتُ إلى الغابة، وكان يُخيَّل لي أنني وحيدة في العالم كلّه، وقد كنتُ سعيدة إلى درجة لم يسبق لي أن شعرت بها من قبل. كنت أتناول طعام الغداء بمفردي، ومن ثم كنتُ أعزف لمدة ساعة كاملة، بحيث إنّهُ نشأ لدي إحساس بتأثير الموسيقى كما لو أنني سوف أحيا إلى ما لا نهاية، وأنني سوف أبقى سعيدة إلى أقصى درجة وأكثر من أي شخص آخر. ثم غفوتُ في مكتب بابا، وفي الساعة الرابعة فجرًا أيقظتني كاتيا وقالت أنّ الكسي ميخائيلوفيتش قد وصل. كنت مسرورة جدًّا لقدومه، وأسعدني كثيرًا أن أستقبله وأن أقوم بتسليته. كان قد جاء في عربته التي يجرّها زوج أحصنة جميل جدًّا من سلالة فياتكا*، وقد كان الحصانان يقفان بالقرب من الشرفة على الدوام. وهكذا بقي هو، لأن الطقس كان ماطرًا، وكان يريد أن ينتظر حلول المساء ريثما يتوقف هطول المطر وتصبح الطريق جافة. أعرب عن أسفه لأنه لم يجد بابا، كان منتعشًا ويتصرف معي مثل شخص نبيل، كما أنه راح يمازحني كثيرًا وكما لو أنه مُغرمٌ بي منذ زمن طويل. كان الطقس رائعًا من

* حاليًا تدعى مدينة كيروف... مدينة روسية قديمة على نهر فياتكا يعود تاريخ إنشائها إلى عام ١١٨١ م. المترجم

جديد عندما رحنا نتمشى في الحديقة قبل وقت تناول الشاي، بحيث إنَّ الشمس كانت تتلألأ غامرة الحديقة المبللة بأكملها على الرغم من أنَّ الجوَّ صار باردًا تمامًا، وكان يمسكني من ذراعي ويقول أنّه هو بمثابة فاوست مع مرغريتا. عمره ست وخمسون سنة، ومع ذلك كان يبدو وسيمًا جدًّا، وكان هندامه أنيقًا دائماً -لم يعجبني أمر واحد فقط، وهو أنه كان يرتدي هذه المرة عباءة كانت تفوح منها رائحة عطر إنكليزي- وأنَّ عينيه كانتا تبدوان فتيتَين تمامًا وسوداوين، وأنَّ لحيته كانت مقسومة بعناية إلى قسمين طويلين وكانت شائبة بالكامل. تناولنا الشاي في الشرفة المزججة، ثم شعرتُ كما لو أنني متوعكة فتمددت على الأريكة، أما هو فكان يدخِّن. ثم انتقل إلى الجلوس بجانبي وراح يقول من جديد كلمات مجاملة، ومن ثم بدأ يتفحصني ويقبّل يدي... غطيت وجهي بمنديلي الحريري، ولكنه قبّلني عدّة مرات في شفتي من فوق المنديل. لا أفهم كيف أمكن لذلك أن يحدث، لكني فقدتُ عقلي، ولم يخطر ببالي أبدًا أنني قادرة أن أكون كذلك! لم يعد أمامي الآن سوى مخرج واحد... أشعر بالقرف منه لدرجة أنني لا أستطيع أن أعيش بعد ذلك!».

أصبحت المدينة في هذه الأيام من أبريل نظيفة، وجافّة، كما أنَّ حجارة أرصفتها ابيضّت، وبات السير عليها سهلًا ولطيفًا. بعد صلاة القداس من كلِّ يومِ أحد، تنطلق عبر شارع الكاتدرائية الذي يقود إلى المخرج مَن المدينة، امرأة ضئيلة الحجم في ثياب الحِداد وفي قفازات سوداء من جلد الجدي،

وهي تحمل مظلّة من الخشب الأسود. تجتاز عبر شارع إسفلتي ميدانًا متسخًا، يوجد فيه عدد كبير من ورش الحدادة المدخّنة ويهب هواء حقلي منعش؛ بعد ذلك، في المسافة بين دير للرجال وبين مبنى السجن، يصبح المنحدر الضبابي للسماء أبيض اللون، ويصبح الحقل الخريفي رماديًا، ومن ثمّ بعد أن تشقّ طريقك وسط برك الماء بالقرب من جدار الدير وتنعطف إلى اليسار، سوف ترى ما يشبه حديقة واطئة كبيرة محاطة بسور أبيض اللون، كتب فوق بوابتها «رقاد السيدة العذراء»*. سوف ترسم المرأة الصغيرة علامة الصليب، ومن ثم سوف تكمل طريقها كالعادة غبر الممشى الرئيسي. وعندما تصل إلى المقعد القائم مقابل الصليب من خشب البلوط، سوف تجلس في الريح والبرد الربيعي لمدة ساعة أو ساعتين أو أكثر، إلى أن تتجمّد قدماها من البرد في حذائها الخفيف ويدها في قفاز ضيّق من جلد الماعز. وبعد أن تصغي إلى التغريد العذب للطيور الربيعية، وبعد أن تصغي إلى رنين الريح في الإكليل الخزفي، تبدأ بالتفكير أحيانًا بأنها مستعدة لأن تدفع نصف حياتها مقابل ألا يكون هذا الإكليل المكرّس للموت موجودًا أمام عينيها. هذا الإكليل، وهذه التلّة من التراب، وهذا الصليب من خشب البلوط! هل يعقل أنها موجودة تحته تلك

* أو رقاد والدة الرب: يعد مفهوم انتقال العذراء بالنفس والجسد إلى السماء من أهم المعتقدات المسيحية حول مريم العذراء. يشترك هذا المفهوم أيضاً بين مختلف الطوائف المسيحية التي تبجل مريم العذراء وإن كان بأشكال مختلفة. في الكنائس التي تلتزم بالعيد، يُعد الانتقال يومًا رئيسيًا يحتفل به في ١٥ أغسطس. في العديد من الدول، يتم تمييز العيد أيضًا باعتباره يومًا مقدسًا للالتزام في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. لا يحتوي العهد الجديد على أي نص صريح عن موت أو انتقال مريم، لكن تم تفسير بعض المقاطع الكتابية لاهوتياً لوصف المصير النهائي لوالدة يسوع. المترجم

التي تشرق عيناها الآن بطريقة خالدة من قلب الميدالية الخزفية المحدبة في داخل الصليب، وكيف يمكن التوفيق بين هذه النظرة النقية والطاهرة وبين ذلك الأمر الفظيع الذي بات اليوم ملاصقًا لاسم أوليا ميشيرسكايا؟ لكن المرأة الصغيرة سعيدة في أعماق روحها، مثلها مثل جميع أولئك الناس المخلصين لنوع من الأحلام الحماسية والعميقة.

تلك المرأة هي مديرة المدرسة التي كانت تتعلم فيها أوليا ميشيرسكايا، تلك الفتاة التي لم تعد شابةً، والتي تحيا منذ زمن طويل على فكرة مُتخيَّلة حلّت محل حياتها الحقيقية. في بداية الأمر كان شقيقها هو موضوع هذه الفكرة المختلقة، ذلك الأخ البائس وضابط الصف الذي لم يكن يتميز بشيء، لقد ربطت روحها بالكامل معه، مع مستقبله الذي كانت تظن أنه سوف يكون ناجحًا ومتألقًا. وعندما قتلوه بالقرب من موكدن*، راحت تقنع نفسها بأنها ناشطة عقائدية. ولكن وفاة أوليا ميشيرسكايا جعلتها أسيرةَ حلم جديد. أصبحت أوليا ميشيرسكايا الآن موضوع أفكارها التي لا تهدأ ومشاعرها التي لا تستكين. وهي تزور قبرها كل عيد، دون أن تطرف عينها عن الصليب من خشب البلوط، وتتذكّر الوجه الشاحب لأويليا ميشيرسكايا وهي في التابوت، وسط الأزهار، وكيف أنها راحت تتنصّت ذات يوم: في يوم من الأيام، أثناء الاستراحة الكبيرة، وبينما

* معركة موكدن، هي واحدة من أكبر المعارك البرية قبل الحرب العالمية الأولى وهي المعركة الأخيرة والأكثر حسمًا في الحرب الروسية اليابانية، استمرت هذه المعركة من ٢٠ فبراير إلى ١٠ مارس عام ١٩٠٥ بين اليابان وروسيا بالقرب من موكدن في منشوريا. تسمى هذه المدينة الآن شنيانغ، عاصمة مقاطعة لياونينغ في الصين. المترجم

كانت أوليا ميشيرسكايا تتنزّه في الحديقة، راحت تتكلّم بسرعة كبيرة لصديقتها العزيزة، سوبوتينا البدينة طويلة القامة وتقول:

- لقد قرأت في أحد كتب بابا -ولديه الكثير من الكتب الغريبة والمثيرة للضحك- كيف يجب أن يكون جمال المرأة. لقد كتبوا هناك، بالمناسبة، الكثير في هذا الصدد بحيث لا يمكنك أن تتذكري كلَّ شيء. ولكن، بطبيعة الحال، يجب أن تكون العينان سوداوين تغليان مثل القطران -قسمًا بالله، مكتوب هناك هكذا بالضبط: تغلي العينان كالقطران!- ويجب أن تكون الرموش سوداء مثل الليل، كما يجب أن تكون الوجنتان متوردتين بلطف، وأن يكون القوام ممشوقًا وأن تكون اليدان أطول من المعتاد. هل تفهمين، أطول مما هو مألوف! ويجب أن تكون الساق صغيرة، والصدر كبيرًا بشكل معقول، أن تكون ربلة الساق مدوّرة بشكل صحيح، وأن تكون الركبة بلون صدَفي، وأما الكتفان فيجب أن يكونا منحدرين. لقد حفظت أشياء كثيرة عن ظهر قلب تقريبًا، هكذا مكتوب بالتمام! ولكن، هل تعرفين ما هو الأهم؟ أن تتنفس بيسر وبسهولة! وللعلم، أنا لدي تنفس ناعم وخفيف، هيا اسمعي كيف أتنفس، أليس صحيحًا؟

وها هو الآن ذلك النَّفَس الخفيف والسهل قد انتشر وتناثر في أنحاء الدنيا، في هذه السماء الملبّدة بالغيوم، وفي هذه الرياح الربيعية الباردة.

١٩١٦

جنتلمان من سان فرانسيسكو

ويلٌ لكِ يا بابل، أيتها المدينة القوية

سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي *

كان جنتلمان من سان فرانسيسكو -الذي لا يذكر أحدٌ اسمه لا في نابولي ولا في كباري- مسافرًا إلى العالم القديم لمدة عامين كاملين، برفقة زوجه وابنته بهدف الترفيه عن النفس فقط.

كان على قناعة تامة بأنَّ له الحق بالراحة وبالتمتع، وأن يقوم برحلة طويلة وممتعة ولطيفة وغير ذلك من أمور. وقد كان لديه سبب كاف لمثل هذه القناعة وهو أنه، أوَّلاً، كان ثريًّا، وثانيًا، كان قد بدأ حياته للتو على الرغم من بلوغه الثامنة والخمسين من العمر. أما قبل ذلك الحين فلم يكن يحيا، وإنما كان يعيش وحسب، ولو كان بشكل جيد جدًّا، ولكنه مع ذلك كان يراهن على المستقبل ويعقد آماله عليه. كان يعمل من دون كلل -وكان الصينيون الذين يستأجرهم للعمل عنده بالآلاف،

* سفر الرؤيا المقدّس أو رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٨: ١٠ واقفين من بعيد لأجل خوف عذابها، قائلين: ويل ويل المدينة العظيمة بابل المدينة القوية لأنه في ساعة واحدة جاءت دينونتك - المترجم

يدركون جيّدًا ماذا يعني ذلك- وفي نهاية المطاف رأى أنه أنجز الكثير، وأنه أصبح تقريبًا على مستوى واحد مع أولئك الذين لطالما كان يعدُّهم قدوة ومثالًا يُحتذى بالنسبة له، ولذلك قرّر أن يأخذ قسطه الكامل من الراحة. كانت ثمة عادة لدى الناس من أمثاله، أن يبدؤوا الاستمتاع بالحياة من السفر إلى أوروبا، وإلى الهند ومصر. وقد افترض أنه سوف يفعل الشيء ذاته. بطبيعة الحال، كان يريد أن يكافئ، لقاء سنوات العمل، نفسه في المقام الأول، بيدَ أنه كان سعيدًا أيضًا لأجل زوجته وابنته. لم تكن زوجته تتمتّع على الإطلاق بأي رغبات مميزة، لكن جميع النسوة الأمريكيات الطاعنات في السن شغوفات بالسفر ويعشقن الترحال. وأما بخصوص ابنته، الصبية في سن المراهقة والمريضة قليلًا، كانت الرحلة ضرورية بالنسبة لها إلى أبعد حد، ناهيك من فائدتها على الصحة، وهل تخلو الرحلات والأسفار من لقاءات سعيدة عن طريق الصدفة؟ إذ يحدث هناك أن تكون جالسًا إلى طاولة واحدة مع ملياردير أو أن تتأمل المنظر إلى جانبه.

كان الجنتلمان من سان فرانسيسكو قد رسم خطّة طموحة جدًّا لمسير رحلته. كان يأمل أن يستمتع في شهري ديسمبر ويناير بأشعة الشمس في جنوب إيطاليا، وبالآثار القديمة والرقصات الشعبية Tarantella*، وبموسيقى السيرينادة** للمطربين

* مجموعة من الرقصات الشعبية المختلفة التي تتميز بإيقاع سريع متفائل، يرافقه الدفوف. إنها من بين الأشكال الأكثر شهرة للموسيقى الإيطالية الجنوبية التقليدية. المترجم

** السرينادة في الموسيقى، عمل موسيقي يعرض على شرف شخص ما. والسرينادة عادة عمل موسيقي هادئ وخفيف وهي في الأصل أغنية ليلية للتودد للمحبوبة. المترجم

الجوالين، وبكلِّ ما يمكن للناس في مثلِ سنّه أن يشعروا بمنتهى الرقّة والذوق -بعشق النساء الشاباتِ من نابولي، حتى ولو كان عشقًا ليس من دون نوايا معينة. أما أيام الكرنفال فكان ينوي أن يقضيها في نيس، في مونتي كارلو، حيث يقصد المكان في هذه الفترة نخبة المجتمع المخملي -ذلك المجتمع الذي ترتبط به جميع مصالح وخيرات الحضارة البشرية: بما في ذلك موضة البدلات الرسمية، واستقرار العروش الملكية، اندلاع الحروب ورخاء الفنادق- حيث ينخرط البعض منهم بحماس في سباق السيارات والقوارب الشراعية، بينما يلعب بعضهم الآخر الروليت*، وبعضهم الثالث ينغمس فيما يعرف بالتغازل. في حين أن البعض الرابع منهم يتسلى بصيد الحمام الذي ينطلق من الحدائق، ويحلّق بشكل جميل عاليًا فوق عشب بلون الزمرد وعلى خلفية البحر بلون نبات أذن الفأر**، ليسقطَ على الفور كتلًا بيضاء على الأرض. أما بداية شهر مارس فكان ينوي أن يكرّسها لمدينة فلورنسا، وأن يذهب إلى روما من أجل مشاهدة اللوحات المكرّسة لآلام

---

* الروليت هي لعبة قمار تمارس في الكازينو سميت باسم لعبة فرنسية تسمى العجلة الصغيرة. المترجم

** أذن الفأر أو آذان الفأر: جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة الحمحمية من طائفة ثنائيات الفلقة. يضم أكثر من ثلاثين نوعاً مقبولاً وعشرات أخرى لم يحسم أمرها بعد. ينمو هذا النبات في مناطق الغابات البرية ومناطق السهول المعتدلة. وهذا النبات له ساق مكسوّة بالشعر، وأوراق طرية مكسوّة بالشعر أيضًا. ولهذه النبتة أزهار صغيرة، ذات لون أزرق فاتح ولون أصفر في وسطها، وهي تنمو بشكل عنقودي. كما أن لبعض أنواعها أزهارًا بيضاء أو وردية، وعلى العموم فإن كل الأنواع تقريبًا، لها براعم وردية. يعتبر البعض أذن الفأر رمزًا للصداقة والحب الصادق. ويرد ذكر هذه الزهرة في عدد من الأساطير. ففي أحد الأساطير الألمانية كانت عبارة «لا تنسيني» هي آخر ما قاله حبيب لحبيبته قبل أن يغرق وهو يحاول أن يأتيها بزهرة. المترجم

المسيح، حيث سيستمع هناك إلى أوبرا Miserere*، كما كانت خطته تتضمن زيارة كلٍّ من البندقية وباريس، ومشاهدة مصارعة الثيران في أشبيليا، والسباحة في مياه شبه الجزيرة البريطانية، وزيارة أثينا والقسطنطينية وفلسطين ومصر، بل وحتى اليابان، بالطبع في طريق العودة. وقد سار كلُّ شيء في بداية الأمر على أفضل ما يرام.

كانت نهاية شهر نوفمبر، وقد اضطروا لأن يبحروا طوال الطريق إلى جبل طارق عبر ضباب جليدي تارة، وتارة وسط العاصفة مع تساقط ثلج رطب؛ ولكنهم وصلوا أخيرًا بخير وسلامة.

كان عدد المسافرين كبيرًا جدًّا، وكانت السفينة «أطلانتس»** الشهيرة أشبه بفندق ضخم عائم مع كل ما يلزم من وسائل الراحة، مع بار ليلي، وحمامات شرقية، ومع جريدة خاصة بها. وقد راحت الحياة عليها تجري بمنتهى الدقة والانتظام وفق برنامج مدروس: كانوا يستيقظون باكرًا، على أصوات الأبواق التي تدوّي في الممرات في تلك الساعة المظلمة، حيث كان الشروق ينتشر فيها ببطء غير ودّي فوق الصحراء

---

* موسيقى على نص المزمور ٥٠. ألفها الموسيقار الإيطالي غريغوري أليغري وتعزف عادة في الأسبوع المقدّس أو أسبوع آلام السيد المسيح. المترجم

** يريد الكاتب من خلال هذه التسمية أن يشير إلى تلك الجزيرة أو القارة أطْلَنْتِس أو جزيرة أطلس، قارة افتراضية أسطورية لم يثبت وجودها حتى الآن بدليل قاطع، ذكرها أفلاطون في محاورتين مسجلتين له، طيمايوس وكريتياس، وتحكي عمّا حدثه جده طولون عن رحلته إلى مصر ولقائه مع الكهنة هناك وحديثهم عن القارة الأطلسية التي حكمت العالم. ألهمت خيال الكثيرين من الكتاب ومنتجي الأفلام لإنتاج عدد ضخم من منتجات الخيال العلمي التي تدور حول هذا الموضوع. وقد خلف احتمال وجود أطلنتس مناقشات نشطة طوال العصور القديمة الكلاسيكية، ولكنها كانت ترفض في العادة. المترجم

المائية الرمادية المائلة إلى الخضرة، التي كانت تضطرب بصعوبة في أجواء الضباب، كان الركاب يرتدون بيجامات من الفانيلا، يشربون القهوة أو الشوكولاتة أو الكاكاو، بعد ذلك كانوا يجلسون في حمّامات رخامية، ويقومون ببعض التمارين الرياضية، ما يثير شهيتهم للطعام ويحسّن من مزاجهم. ثم كانوا يقومون بالتجهز الصباحي، ويذهبون إلى أول فطور. كان يفترَض بهم أن يتنزهوا بطريقة نشطة في أرجاء الطوابق المختلفة من السفينة، وأن يتنشقوا الهواء النقي البارد للمحيط أو أن يلعبوا الشفلبورد* وغيرها من الألعاب من أجل إثارة الشهية من جديد، وذلك حتى الساعة الحادية عشرة صباحًا، حيث يتناولون في الحادية عشرة الساندويش مع المرقة، وبعد أن يعززوا من طاقتهم يبدؤون بقراءة الصحيفة باستمتاع كبير بانتظار الفطور الثاني، الدسم أكثر والأكثر تنوعًا من الأول. وبعد ذلك يخصصون الساعتين التاليتين للراحة والاسترخاء. كانت الطوابق بأكملها مزوّدة بكراسٍ مريحة للاستلقاء والجلوس، حيث كان المسافرون يتمددون عليها وقد غطّوا أنفسهم ببطانيات، وراحوا يتأملون السماء المليئة بالسحب وبتلال الزبد التي تلوح من وراء سطح السفينة، أو كانوا يأخذون قيلولة قصيرة من النوم. وفي الساعة الخامسة عصرًا،

---

*لعبة الشفلبورد أو لعبة دفع الأقراص : Shuffleboard لعبة تجرى بدفع بعض الأقراص الخشبية، أو القطع النقدية فوق مائدة ملساء، نحو نقاط معينة. ويستخدم اللاعبون فيها عصا طويلة المقابض، تسمى عصا البلياردو، لدفع الأقراص البلاستيكية إلى مكان للتسجيل في الطرف الآخر من الطاولة. كما يحاول اللاعب أيضًا أن يدفع أقراصه أو أقراص خصمه بعيدًا عن مكان التسجيل أو إلى داخل منطقة الجزاء. المترجم

وبعد أن ينتعشوا ويصبحوا مرحين، كانوا يقدمون لهم شايًا فواحًا ثقيلًا مع البسكويت. وفي السابعة مساء كانوا يحيطونهم علمًا بواسطة الأبواق عن أهمّ غاية في هذه الدنيا، وعن تاج هذه الحياة. هنا كان السيد من سان فرانسيسكو يفرك يديه من فرط طاقته الحيوية، ويسرع إلى مقصورته الفاخرة والباذخة لكي يرتدي ثيابه.

كانت طوابق السفينة «أطلانتس» تبدو كأشداق مفتوحة في الظلام كما لو أنها عدد لا يحصى من الأعين المتوهجة، وكان ثمة عدد هائل من الخدم الذين يعملون في أقبية السفينة المخصصة للطبخ والغسيل وحفظ النبيذ. كان المحيط الذي يسير خلف جدرانها رهيبًا، ولكنهم لم يكونوا يذكرونه، لأنهم كانوا واثقين بقوة من سيطرة ربّان السفينة عليه، ذلك الرجل الأشقر، الضخم والجسيم جدًّا والذي كان يبدو ناعسًا بصورة دائمة، ويشبه في بدلته الرسمية مع أكمامها الواسعة المطرزة بخيوط ذهبية، صنمًا هائلًا نادرًا ما يظهر على الملأ من مخدعه السرّي. كانت صفارات الإنذار تعوي على السطح في مقدمة السفينة باستمرار بطريقة جهنمية وتصرخ بأصوات حاقدة مسعورة، لكنَّ عددًا قليلًا من الناس الذين كانوا يتناولون وجبة الغداء سمعوا صفارة الإنذار. لقد طغت عليها أصوات فرقة الآلات الموسيقية الوترية التي راحت تعزف بطريقة رائعة وبلا كلل في صالة ذات إنارة مزدوجة من طابقين ومفروشة بالسجاد، فكانت طافحة بالأضواء الاحتفالية ومليئة بالسيدات

في فساتين سهرة «decollete» وبالرجال في معاطف وسترات رسمية، بالخدم الرشيقين وبالنُدُل اللطيفين، حيث كان أحدهم يقوم بتسجيل الطلبات على النبيذ فقط، وكان يسير مع سلسلة في عنقه كما لو أنه عُمدة مدينة ما. كانت البدلة الرسمية والملابس الداخلية المنشّاة قد جعلت السيد من سان فرانسيسكو يبدو أصغر سنًّا إلى درجة كبيرة. كان بقوامه اليابس وقامته القصيرة، المُصمَّم بشكل غريب قليلًا، ولكنه في بدلة تمت خياطتها بطريقة رائعة ونظيفة إلى درجة اللمعان، كان يجلس منتعشًا بشكل معتدل في ذلك المكان الباذخ والمتلألئ بالذهب، وبالأضواء خلف زجاجة من نبيذ جوهانسبيرج* بلون الكهرمان، وخلف أكواب وكؤوس من الزجاج الفاخر والشفاف جدًّا، وباقة مترفة وبديعة من أزهار الزنبق. كان ثمة ما هو منغولي في وجهه المائل للصفرة بشاربيه المقصوصين الفضيين، وكانت أسنانه الكبيرة تتلألأ بحشوات من الذهب، وبالعاج القديم، برأسه الأصلع المتين. كما كانت زوجته ترتدي ثيابًا فاخرة ولكنها تتناسب مع عمرها، وكانت تبدو امرأة ضخمة البنية، عريضة المنكبين وهادئة. أما الابنة فكانت أكثر تعقيدًا، ولكنها شفافة وناعمة مع صراحة بريئة، كانت طويلة القامة ونحيلة، ذات شعر رائع، مُسرَّح بطريقة جميلة وأنيقة، مع أنفاس عطرة فواحة بسبب بتلات البنفسج، ومع بثور وردية اللون فائقة الرقّة بالقرب من الشفتين وبين لوحي

* شلوس جوهانسبيرج هو مصنع نبيذ في قرية جوهانسبرج إلى الغرب من فيسبادن، هيس، في منطقة راينجاو لزراعة الكروم في ألمانيا. لقد تم تصنيع النبيذ لأكثر من ٩٠٠ عاماً. يشتهر مصنع النبيذ بمزاعمه بأنهُ «اكتشفت» نبيذ الحصاد المتأخر. المترجم

كتفيها المطليين بالبودرة قليلًا. استمر الغداء لأكثر من ساعة، ثم بدأ الرقص بعد الغداء في قاعة الباليه، حيث راح الرجال أثناء ذلك -بمن فيهم السيد من سان فرانسيسكو بالتأكيد- يقررون، وقد رفعوا أرجلهم، مصائر الشعوب طبقًا لآخر الأخبار الواردة من بورصة الأسواق المالية، وهم يدخنون السيجار الكوبي ويشربون المشروبات الكحولية «الليكور» إلى أن أصبحت وجوههم قرمزية اللون، وذلك في بار حيث كان يقوم على خدمتهم زنوج في قمصان حمراء بلا أكمام وبأعين شبيهة بالبيض المسلوق منزوع القشرة.

كان المحيط يهدر ويسير خلف جوانب السفينة مثل جبال سوداء، وكانت الزوبعة الثلجية تصفِّر في حبال السفينة التي باتت ثقيلة، ما جعل السفينة بأكملها تهتز وهي تتغلب على هذه العاصفة وعلى هذه الجبال إذ راحت ترمي إلى الجانبين، مثل محراث بالضبط، كتلها الضخمة المتقلقلة التي كانت تجيش وتتلوى عاليًا بذيولها الزبدية. وكان الضباب يكتم أصوات صفارة السفينة فيجعلها تئن وتنوح كما لو أنها في مأتم، وقد تجمّد البحارة المناوبون في برج المراقبة وفقدوا أعصابهم بسبب التوتر الشديد والمرهق للانتباه والتركيز. كان رحم السفينة الواقع في جوف الماء أشبه بأعماق الجحيم المظلم والمتأجج في دورته الأخيرة، التاسعة -ذلك الجزء من السفينة حيث كانت المواقد الضخمة جدًّا تقهقه بقوّة وهي تلتهم بأشداقها الملتهبة أكوامًا من الفحم الحجري، كانت تُلقى فيها

مع لعلعة وهي مشبعة بالعرق اللاذع والمتسخ لأشخاص عراة حتى خصورهم وقد أصبح لون وجوههم وأجسادهم قرمزيًا بسبب اللهيب. وأما هناك، في البار، فكان الناس يضعون أقدامهم بلا اكتراث على أذرع الكراسي وهم يحتسون الكونياك والليكور، وقد راحوا يسبحون في أمواج من الدخان الحارق ذي الرائحة اللطيفة، كما كانت قاعة الرقص بهيجة وطافحة بالأضواء، وبالدفء والمرح، حيث راح الناس يدورون أزواجًا على أنغام الفالس أو يرقصون على أنغام التانغو، وكانت الموسيقى تكرر بإصرار وفي نوع من الحزن اللذيذ والمخزي الصلاة عن الشيء نفسه باستمرار. كان يوجد بين هذا الحشد الرائع رجل فاحش الثراء، حليق الذقن وطويل القامة، أشبه بالأسقف، في معطف من الطراز القديم، كما كان ثمة كاتب أسباني شهير، وكانت هناك امرأة جميلة معروفة على مستوى العالم، وكان ثمة ثنائي عاشق رائع وقد راح الآخرون يراقبونه بفضول دون أن يخفي الثنائي سعادته، لم يكن الرجل يرقص إلّا مع تلك المرأة، وكانا يؤديان كلّ شيء بنجاح باهر وبأناقة ساحرة، دون أن يعرف أحد باستثناء قبطان السفينة أن لويد* هو الذي استأجر ذلك الثنائي لكي يقوم بدور عاشقيَن مقابل مبلغ كبير من المال، وأن هذا الثنائي يسافر منذ مدة طويلة، تارة في هذه السفينة وتارة في سفينة أخرى.

أفرحت الشمس الجميع في جبل طارق، حيث بدا

* ورد اسم العلم لويد في النص الأصلي بصيغة مفردة من دون أية صفات أو إشارات تعريف. فاقتضى التنويه. المترجم

الوقت وكأنه مطلع فصل الربيع. ظهر مسافر جديد في سفينة «أطلانتس»، وقد أثار اهتمام جميع الركاب. إنه ولي عهد إحدى الدول الآسيوية الذي قرر أن يقوم برحلته متخفيًا، بصفته الشخصية فقط، وهو شخص قصير القامة، يابس العود بالكامل، ذو وجه عريض وعينين ضيقتين، يضع عليهما نظارات ذهبية، وغير مريح إلى حدٍّ ما لأنَّ شاربيه السوداوين الكبيرين كانا يشفّان عنده كما عند شخص ميت، ولكنه على العموم كان شخصًا لطيف المعشر ومتواضعًا. ثم فاحت رائحة الشتاء من جديد في البحر الأبيض المتوسط، حيث راحت تتقدّم موجة كبيرة وملونة مثل ذيل الطاووس، وقد بددتها وبعثرتها بمرح وبطريقة مسعورة رياح ترامونتان* التي كانت تتجه لملاقاتها تحت قبة السماء المتلألئة والصافية تمامًا. ولكن السماء في اليوم التالي بدأت تشحب، وامتلأ الأفق بالضباب: أصبحت اليابسة قريبة، حيث لاحت جزر إسكيا** وكابري، وأصبح بالإمكان رؤية مدينة نابولي من خلال المنظار، فكانت أشبه بقطع من السكّر المنثور عند سفح شيء ما رمادي اللون. كان العديد من السيدات والسادة قد ارتدوا معاطف خفيفة مع الفرو في قسمها العلوي، وكان ثمة فتيان يعملون بلا بقشيش بالمقابل، ويتحدثون مع بعضهم همسًا فقط -مراهقون صينيون، بأرجل

---

* ترامونتان Tramontane: رياح شمالية أو شمالية شرقية شديدة البرودة، تهب شتاء على الجزء من الساحل المتوسطي الفرنسي الإسباني، الواقع بين نهر الرون الأدنى في فرنسا، ومجرى نهر إيبرو في إسبانيا، ويصاحب هبوبها طقس صحو جاف، ويزداد جفافها أثناء هبوطها من المرتفعات الوسطى الفرنسية، وجبال البيرينيه. المترجم

** سكيا، كومبانيا: هي جزيرة بركانية في البحر التيراني. تقع في الطرف الشمالي لخليج نابولي، على بعد حوالي ٣٠ كيلومترًا من مدينة نابولي. المترجم

مقوّسة مع ضفائر من الشعر الأسود تصل إلى حدود العقب، وبرموش كثيفة كما عند البنات- وقد راحوا يحملون على دفعات إلى السلالم البطانيات والعكازات، حقائب سفر كبيرة وحقائب يدوية صغيرة. كانت ابنة السيد من سان فرانسيسكو تقف على سطح السفينة إلى جانب ولي العهد، الذي تمَّ تقديمه لها مساء أمس، عن طريق الصدفة البحتة، وكانت تتظاهر بأنها تنظر إلى البعيد باهتمام كبير، حيث كان يشير إليها وهو يشرح شيئًا ما ويروي لها بسرعة وبصوت خافت عن أمر ما. كان يبدو من حيث القامة صبيًّا وسط الآخرين، ولم يكن جميل الطلّة أبدًا، بل وكان منظره غريبًا -نظارات على عينيه، برنيطة [قبعة أوروبية] على رأسه، ويرتدي معطفًا إنجليزيًا، وأما الشعر في شاربيه الخفيفين فكان أقرب إلى الشعر في ذيل حصان، كما كانت البشرة السمراء على وجهه المسطح تبدو مشدودة وكما لو أنها ملمّعة قليلًا باللك- لكن الفتاة كانت تصغي إليه دون أن تفهم، بسبب اضطرابها، شيئًا مما يقوله لها، بل كان قلبها يخفق بقوّة من جراء افتتانها الشديد وغير المفهوم به. كلُّ شيء، كلُّ شيء عنده كان مختلفًا عمّا عند الآخرين، يداه الجافتان، وبشرته النظيفة التي كانت تسري في العروق تحتها دماء ملكية عريقة، حتى إنَّ ملابسه الأوروبية، المتواضعة تمامًا، الأنيقة والنظيفة كما لو بشكل مقصود، كانت تنطوي على سحر لا يمكن تفسيره. أما السيد من سان فرانسيسكو شخصيًا فكان في جواربه guêtre الدافئة الرمادية فوق حذاء ملمع، ينظر من وقت لآخر إلى المرأة الجميلة الشهيرة التي كانت واقفة بالقرب منه،

تلك الشقراء ذات القامة الطويلة والممشوقة إلى حدِّ الإبهار، مع عينين مزوّقتين وفق آخر صيحات الموضة الباريسية، وكانت تمسك بطرف سلسلة فضية مربوطة إلى طوق كلب صغير، مقوَّس ومنسدل الشعر، وقد راحت تتحدث معه طوال الوقت. فكانت ابنته، وبسبب إحساسها بنوع من الحرج، تسعى جاهدة كيلا تلاحظه.

كان كريمًا جدًّا أثناء رحلته، ولذلك كان يحق له تمامًا أن يكون واثقًا من اهتمام جميع أولئك الذين يقومون على خدمته من ناحية الطعام والشراب، حيث كان هؤلاء يخدمونه منذ الصباح الباكر وحتى المساء، محققين له أي رغبة يعرب عنها. كما كانوا حريصين على نظافته وراحته وراحة باله، فكانوا يحملون أغراضه، وينادون العتالين من أجل خدمته ولكي يحملوا حقائبه وصناديقه إلى الفنادق. هذا ما كان في كلِّ مكان، خلال السفر في البحر، وهذا ما ينبغي أن يكون في نابولي. راحت نابولي تكبر وتقترب. بدأ العازفون الموسيقيون بآلاتهم النحاسية اللامعة يحتشدون على سطح السفينة، وفجأة صعقوا الجميع بأصوات موسيقى احتفالية، وإذ بالقبطان الضخم في بدلته الرسمية الكاملة، يطلُّ من برجه، وكما لو أنه إلهٌ وثني كريم ولطيف، لوّح بيدِه للمسافرين. لقد خُيِّل للسيد من سان فرانسيسكو، مثله مثل جميع الركاب الآخرين، أنّ الموسيقى الاحتفالية الخاصة بأمريكا الأبية المتفاخرة إنما تهدر خصيصًا من أجله وحده، وأنَّ قائد السفينة يرحّب به ويهنّئه على الوصول بالسلامة. وعندما دخلت «أطلانتس»،

أخيرًا، إلى الميناء، واقتربت من رصيف الشاطئ بضخامتها متعددة الطوابق والمكتظة بالناس، ثم بدأت السلالم تقرقع. كم كان كثيرًا عدد موظفي الاستقبال ومساعديهم في الفنادق في قبعات مزينة بشرائط ذهبية، وكم كان كثيرًا عدد الوكلاء والمتعاملين، والفتيان، والمنادين، والرجال الأقوياء بثيابهم المهلهلة وهم يحملون رزمًا من البطاقات الملونة في أيديهم، وقد اندفعوا لملاقاته وهم يعرضون عليه خدماتهم! ابتسم بسخرية لأصحاب الثياب الممزقة هؤلاء، وتابع مسيره باتجاه سيارة تابعة لذلك الفندق الذي كان يفترَض أن ينزل فيه ولي العهد، فقال مغمغمًا، باللغة الإنجليزية أولًا، ثم كرّر باللغة الإيطالية:

– Go away! ,Via!*

انطلقت الحياة في نابولي على الفور وفق النظام المقرر: في الصباح الباكر فطور في مطعم معتم، وسماء مليئة بالسحب ولا تعِد بما هو كثير، وحشد من المرشدين السياحيين عند مدخل الفندق. ثم أولى ابتسامات الشمس الوردية والدافئة، والإطلالة من الشرفة العالية المعلّقة على جبل فيزوف**، المغلّف حتى أسفله بالأبخرة الصباحية المتلألئة، والنظر إلى التموجات الفضية بلون اللؤلؤ في خليج جزيرة كابري وإلى الرسم الدقيق

* هيا، اذهب من هنا. وردت الكلمة في النص الأصلي باللغة الإنجليزية. فاقتضى التنويه. المترجم

** جبل فيزوف: جبل بركاني يقع شرقي مدينة نابولي. يعد جبل فيزوف الجبل البركاني الثائر الوحيد في أوروبا بالإضافة إلى براكين أخرى في الجزر الإيطالية. يشتهر هذا البركان بثورانه سنة ٧٩ م، والذي أدى إلى تدمير ودفن المدن الرومانية بومباي وهركولانيوم وعدة مستوطنات أخرى. المترجم

للجزيرة عند الأفق، بالإضافة إلى مشاهدة الحمير الصغيرة وهي تعدو هابطة بسرعة على الشاطئ اللزج وتجر عربات بعجلتين، وإلى صفوف الجنود صغيري الحجم الذين يسيرون إلى مكان ما على إيقاع موسيقى مرحة ومثيرة للتحدي. ومن ثم الخروج إلى السيارة والسير ببطء في الممرات الرمادية والضيقة للشوارع المكتظة بالناس، وسط بيوت عالية متعددة الطوابق، وزيارة المتاحف النظيفة إلى حد أنها تبدو كالموتى، والمضاءة بدرجة متساوية ولطيفة، ولكنها مثيرة للضجر كما لو أنه تمّت إنارتها بالثلج، أو الكنائس الباردة التي تفوح برائحة الشمع والتي يوجد فيها في كل مكان الشيء نفسه: مدخل ضخم مهيب مغلق بواسطة ستارة جلدية ثقيلة، وفي الداخل فضاء هائل وصمت، وأنوار هادئة لشمعدانات سباعية وقد راحت تصبح حمراء متوهجة في العمق على العرش المزين بالدانتيل، حيث تجلس عجوز وحيدة وسط المقاعد الخشبية القاتمة، وبلاطات زلقة للقبور تحت الأقدام وشيء ما من قبيل لوحة «الإنزال عن الصليب»* الشهيرة بكلّ تأكيد. وفي الساعة الواحدة الفطور الثاني على جبل سان مارتينو، حيث يتقاطر عند منتصف النهار عدد كبير من النخبة من الناس، وحيث أصيبت ابنة السيد من سان فرانسيسكو ذات يوم بوعكة صحية، فقد خُيِّل لها أنَّ ولي العهد يجلس في القاعة وذلك على الرغم من أنها كانت تعرف من خلال الصحف أنه موجود في روما.

* The Descent from the Cross : لوحة لرسومات الفنان الفلمندي روجير فان دير فايدن التي رسمها عام ١٤٣٥، الآن في متحف ديل برادو، مدريد. يتم إنزال المسيح المصلوب من الصليب، وجسده الذي يحتفظ به يوسف الرامي ونيقوديموس. المترجم

وفي الساعة الخامسة عصرًا تناول الشاي في الفندق، في صالة أنيقة مترفة ودافئة جدًّا كونها مفروشة بالسجاد ولكثرة المواقد المتأججة فيها. ومن ثم يبدأ الاستعداد لتناول وجبة الغداء حيث يهدر من جديد في جميع الطوابق صوت آمرٌ لجرس النداء، وحيث تُشاهد من جديد صفوف النساء في فساتين من الحرير تكشف العنق والكتفين، وتصدر حفيفًا ناعمًا وهنَّ يصعدن ويهبطن على السلالم التي تعكس المرايا فيها صورهنَّ. ومن جديد أبواب صالة الطعام المفتوحة على اتساعها وبسخاء، وسترات عازفي الموسيقى الحمراء على المنصة، وحشد أسود من الخدم إلى جانب النادل وهو يسكب بمهارة فائقة شوربة جامدة وردية اللون في الصحون. ومرة أخرى كانت وجبة الغداء كريمة وغنية بالأطباق وبأصناف النبيذ، وبالمياه الغازية وبمختلف أنواع الحلويات والفواكه، بحيث إنَّ الخدم قاموا في الساعة الحادية عشرة ليلًا بتوزيع أكياس مطاطية ممتلئة بالماء الساخن من أجل تدفئة البطون.

لكن شهر ديسمبر لم يكن موفقًا كما يجب في تلك السنة: كان موظفو الاستقبال عند التطرق إلى الطقس معهم، يهزّون أكتافهم تعبيرًا عن الشعور بالذنب، وهم يتمتمون أنهم لا يذكرون أنه مرّت عليهم مثل هذه السنة من قبل، مع العلم أنها ليست المرة الأولى التي يجدون أنفسهم فيها مضطرين إلى التذمر بسبب ذلك، ومستشهدين بأنه ثمة شيء ما غريب وفظيع يحدث في كلِّ مكان. ثمة أمطار وعواصف غير مسبوقة

في الريفيرا الفرنسية، وفي أثينا يهطل الثلج، كما أنَّ جبل إتنا* مغطى بالثلج بأكمله وهذا ما يجعله يتلألأ في أوقات الليل، وأما باليرمو فقد غادرها السيّاح هاربين من البرد الشديد. كانت شمس الصباح تمارس لعبةَ الخداع كل يوم: كان الطقس يصبح عند منتصف النهار رماديًا بكل تأكيد، ويبدأ هطول المطر ليصبح أكثر غزارة وأشدَّ برودةً، وكانت أشجار النخيل عندئذ تتلألأ بطبقة من لون قصديري، وتصبح المدينة متسخة ومزدحمة إلى أبعد حد. كما أنَّ المتاحف تصبح متشابهة ورتيبة، وأعقاب السجائر للحوذيين البدينين في سترات مطرية وهي تخفق مع الرياح، تكتسب رائحة مقرفة لا تطاق، وبحيث إنَّ ضربات أسواطهم على أعناق الخيول الرديئة كانت تبدو زائفة ومبالغًا بها، فضلًا عن أنَّ أحذية الرجال الذين يقومون بتنظيف سكك التراموای من الوحل والثلج، كانت تبدو فظيعة، والنساء وهنَّ يخبطنَ في الأوحال، تحت المطر، برؤوسهن ذات الشعر المنفوش كنَّ يبدون بسيقان قصيرة وقبيحة. دعك من الحديث عن الرطوبة والرائحة الكريهة الصادرة عن الأسماك الفاسدة على شاطئ البحر المزبد.

بدأ السيد والسيدة من سان فرانسيسكو يتشاجران في أوقات الصباح، أما ابنتهما فكانت تبدو تارة شاحبة مع صداع، وتارة منتعشة وحيوية تبدي اهتمامًا وإعجابًا بكلِّ شيء، وعندئذ تصبح لطيفة وفاتنة. كانت رائعة تلك المشاعر الرقيقة

* جبل إتنا (كان اسمه العربي جبل النار): بركان نشط على الساحل الشرقي من صقلية، بالقرب من ميسينا وقطانية. ومن أكبر البراكين النشطة في أوروبا الآن. المترجم

والمعقدة التي بعثها اللقاء والتعارف مع شخص قبيح تسري في عروقه دماء غير عادية، إذ إنه لم يكن هامّاً في نهاية المطاف، ربما، معرفة سبب ما أثار الإعجاب في قلب الفتاة... المال أم الشهرة أم النسب النبيل؟ راح الجميع يؤكدون بأنَّ الأجواء في سورنتو، في جزيرة كابري، مختلفة تمامًا، كما لو أنَّ الطقس هناك أكثر دفئًا وأن الجوَّ مشمس، كما لو أن البرتقال هناك قد أزهر وأن الأخلاق هناك أرفع وأفضل، وأنَّ النبيذ ألذّ وطبيعي تمامًا. وهكذا قررت العائلة من سان فرانسيسكو أن تنتقل مع جميع أغراضها وحقائب سفرها إلى كابري، وذلك لكي تستقر في سورنتو بعد أن يقوموا بمشاهدة الجزيرة، فيسيروا على الحجارة في المكان الذي كانت موجودة فيه قصور تيبيريوس*، وبعد أن يزوروا المغارات الأسطورية في الكهف اللازوردي**، وبعد أن يسمعوا العازفين على مزامير القُرَب***

---

* أو طِيباريوس قيصر، ٤٢ قبل الميلاد – ٣٧ ميلادي: هو الامبراطور الروماني الثاني وكان ابناً لأوغسطس بالتبني وصهره. وفي ملكه حكم اليهودية بيلاطس البنطي. وقد أبعد اليهود وقتاً ما عن رومية ولكنه ألغى أمره فيما بعد وعوّض عليهم بسبب قساوة حكام الأقاليم. وقد بنى هيرودس انتيباس طبرية على بحر الجليل إجلالاً له وقد عجل بموته (٣٧ ب. م) كاليغولا الذي خلفه. وفي أيام تيبيريوس صُلب المسيح. المترجم

** الكهف الأزرق بإيطاليا أو مغارة «آزارو»: هي مصدر الجذب السياحي الأكبر في كابري»، عبارة عن كهف نصف مغمور بالمياه مضاء بضوء أزرق غريب. كان يقال أن الكهف كان في العصر الروماني مأوى للشياطين والحوريات وغريبي الأطوار، لكن الضوء الأزرق في الحقيقة بسبب انعكاس ضوء الشمس على فتحة قريبة من سطح البحر، ويعتبر أفضل وقت لزيارة الكهف هو الظهر عندما تبدأ الشمس في السطوع على باب الكهف. المترجم

*** القِرْبة أو الجربة أو عموماً آلة مزمار القرب Bagpipes: آلة هوائية تعزف عن طريق النفخ داخل كيس جلدي واسع يخزن الهواء وينقله إلى أنبوب خشبي ذي ٩ ثقوب ليتم إنتاج نغمة من فتح وإقفال الثقوب عن طريق الأصابع. يرتبط مزمار القربة ثقافياً عادة بإسكتلندا، رغم عزف واستعمال الآلة لأغراض كشفية وثقافية في مختلف أنحاء العالم، تشتهر القربة عالمياً في بلدها الأصلي اسكتلندا ولكنها تعزف أيضاً في أيرلندا وبلغاريا وشمال فرنسا، أما عربياً فتستعمل آلة القربة للمهرجانات الشعبية والمجموعات الكشفية فتعزف في فلسطين وليبيا والخليج العربي. المترجم

من أبروتسو وهم يجولون في أرجاء الجزيرة عشية عيد الميلاد لمدة شهر كامل وهم ينشدون أناشيد المديح للسيدة العذراء.

في اليوم الذي قرروا فيه المغادرة -والذي بقي في ذاكرة الأسرة من سان فرانسيسكو- لم تظهر الشمس منذ الصباح. كان ثمة ضباب كثيف يغطي جبل فيزوف حتى أسفله، ويصبح رماديًا على مستوى منخفض فوق السطح الرصاصي للبحر المتموج قليلًا. لم تكن جزيرة كابري مرئية نهائيًا، كما لو أنها لم يسبق لها أن كانت موجودة قط، على الإطلاق. وقد راح المركب الصغير الذي كان يتجه إلى الجزيرة يتأرجح من جهة إلى جهة أخرى، إلى درجة أنَّ أفراد العائلة من سان فرانسيسكو ظلّوا ممددين على المقاعد في الحجرة الحقيرة المخصصة للشركة مالكة المركب، وقد لفَّ كلٌّ واحد منهم قدميه بلحاف وأغمض عينيه من فرط إحساسه بالغثيان. كانت الآنسة تعاني، كما اعتقدت، أكثر من الجميع؛ وقد أحسّت أكثر من مرة، كما خيّل إليها، بأنها سوف تموت. وأما الخادمة التي جاءت إليها مسرعة وهي تحمل وعاء خاصًّا للتقيؤ -والتي مضى عليها سنوات كثيرة وهي تعمل وتتأرجح على هذه الأمواج يوميًا وفي أيام القيظ والصقيع، دون أن تشعر بأي سوء- فقد راحت تضحك وحسب.

كانت الآنسة شاحبة إلى درجة رهيبة وهي تقبض بأسنانها على شريحة من الليمون. أما المستر فقد كان مستلقيًا على ظهره، في معطف واسع وقبعة كبيرة، دون أن يفتح فمه طوال

الطريق؛ أصبح وجهه ممتقعًا، وكان يشعر بصداع فظيع. ففي الأيام الأخيرة وبسبب الطقس الرديء، كان يشرب كميات كبيرة من الكحول في أوقات المساء وهو يتابع بشدّة وبمواظبة كبيرة «مشاهد حيّة» في عدد من بيوت الدعارة. كان المطر يضرب زجاج النوافذ المتقلقلة، التي كانت تتسرب منها قطرات المطر على المقاعد، كما راحت الرياح تعصف الصواري، لدرجة أن الريح بالإضافة إلى الأمواج المنقضة، كانت تجعل المركب يميل في بعض الأحيان على جانبه تمامًا، وهذا ما كان يجعل شيئًا ما يتدحرج عندئذ نحو الأسفل مع دويٍّ كبير. لكن الوضع أصبح أسهل قليلًا أثناء التوقف في محطتي كاستيلاماري وسورنتو. إلّا أنَّ المركب هنا أيضًا راح يتأرجح بطريقة مرعبة، بحيث إنَّ الشاطئ مع كل ما فيه من سفوح وحدائق، وما عليه من أشجار صنوبر وفنادق وردية وبيضاء، ومع الجبال المتموجة والخضراء، كان يتأرجح خلف النافذة إلى الأعلى وإلى الأسفل، كما يحدث في المراجيح تمامًا. كما راحت القوارب الصغيرة تطرق على جدران المركب، ما جعل المسافرين في الدرجة الثالثة يصرخون بحماس شديد وبتهور، وفي مكان ما راح طفل صغير يختنق بصراخه لأنه كان مضغوطًا بكل تأكيد، بينما كانت ريح رطبة تهبُّ عبر الأبواب، فيما راح صبي أخرق يصرخ بصوت حاد جدًّا دون أن يتوقف ولو للحظة، وذلك من فوق سطح البارجة المتأرجحة التي كانت ترفع علم فندق «رويال» وهو يحاول جذب المسافرين: «Kgoya-al! Hotel Kgoya-al». وإذ شعر السيد من سان فرانسيسكو بنفسه، وكما

ينبغي عليه أن يشعر، بأنّهُ عجوزٌ تماماً، فقد راح يفكّر بحزن وبحقد بجميع هذه «الرويال»، وSplendid، وExcelsior، وبهؤلاء الأشخاص الجشعين الذين تفوح منهم رائحة الثوم والذين يقال لهم إيطاليون. وفي إحدى المرات، وأثناء التوقف في إحدى المحطات، رأى عندما فتح عينيه ونهض قليلًا عن المقعد، رأى مجموعة من تلك البيوت الحجرية الصغيرة البائسة والمتعفنة عند أسفل المنحدر الصخري، والتي كانت متلاصقة مع بعضها البعض قرب مياه البحر تمامًا، بالقرب من القوارب، وإلى جانب عدد من الخِرق والعلب الفارغة والشِباك البنية اللون، وإذ تذكّر أنَّ هذه هي إيطاليا الحقيقية التي جاء لكي يستمتع برؤيتها، فقد شعر بالإحباط وباليأس. وأخيرًا، عند الغسق، راحت الجزيرة تقترب بلونها الأسود، كما لو أنه جرى خرقها عند قاعدتها بأضواء حمراء، وقد أصبح الهواء أقلّ شدّة وأكثر دفئًا، وذا رائحة طيبة أكثر، كما راحت تسيل ثعابين ذهبية اللون من مصابيح الميناء على أسطح الأمواج المستكينة التي راحت تتدفق مثل بقعة زيت سوداء. ومن ثمَّ فرقعت المرساة فجأةً وسقطت في الماء مصدرة طبطبة قوية، لتنطلق بعد ذلك ومن كافة الجهات صرخات أصحاب القوارب الغاضبة والمتقاطعة مع بعضها، وعلى الفور ظهر إحساس بالراحة في الصدر، وأصبحت الحجرة في المركب أكثر ضياءً، فظهرت رغبة في تناول الطعام وفي الشرب والتدخين وفي الحركة. وبعد عشر دقائق كانت العائلة من سان فرانسيسكو تركب بارجة كبيرة لتنتقل بعد خمس عشرة دقيقة

إلى رصيف الشاطئ، ومن ثم ركبت في عربة مضيئة لمقطورة خفيفة وانطلقت على صوت الأزيز صاعدة نحو الأعلى عبر المنحدر، بين الأوتاد في كروم العنب ووسط أسيجة حجرية متداعية، وبين أشجار البرتقال المبللة والعوجاء، والتي كانت مغطاة في بعض الأماكن بمظلات من القش، مع ثمارها اللامعة بلون الأورانج وأوراقها الخضراء السميكة والمتلألئة وقد تدلّت نحو الأسفل، إلى ما دون السفح، وبمحاذاة نوافذ المقطورة المفتوحة. تفوح الأرض في إيطاليا برائحة لذيذة طيبة بعد هطول المطر، ولكلِّ جزيرة فيها رائحة خاصة بها.

كانت جزيرة كابري في ذلك المساء رطبّة ومظلمّة. ولكنها في تلك اللحظة بالذات انتعشت فجأة واشتعلت أضواء في أجزاء منها. كانت تقف في أعلى الجبل، عند منصة القطار المعلّق المائل، مجموعة من أولئك الأشخاص الذين كانت تقع على عاتقهم مسؤولية استقبال السيد من سان فرانسيسكو بحفاوة بالغة ولائقة. كما كان يوجد سياح آخرون، لكنهم لم يكونوا ملفتين للاهتمام، بضعة أشخاص من الروس الذين يقطنون في كابري، غير المهندمين وشاردي اللب، بنظارات ولحى، يرتدون معاطف رثّة مرفوعة الياقات، بالإضافة إلى مجموعة من الفتيان الألمان ذوي السيقان الطويلة والرؤوس المستديرة في بدلات من ولاية تيرول النمساوية، ويحملون حقائب ظهرية من القماش على أكتافهم، دون أن تكون لديهم حاجة إلى أي خدمات من قبل أحد، حيث كانوا يشعرون

بأنفسهم في كلِّ مكان كما لو أنهم في بلدهم، فضلًا عن أنهم لم يكونوا أسخياء في النفقات. أما السيد من سان فرانسيسكو، وقد تنحّى بعيدًا عن هؤلاء وعن أولئك، فقد أثار الانتباه على الفور. لذلك قاموا على الفور بمساعدته مع السيدة والآنسة بالخروج، حيث راحوا يركضون أمامهم مشيرين إلى الطريق. ومن جديد أحاط به فتيان ونساء بدينات وقويات من كابري، ممن يحملن حقائب وصناديق السياح الأثرياء والمحترمين على رؤوسهن. رحن يطرقنَ بأحذيتهن الخشبية باحة صغيرة أقرب إلى مسرح الأوبرا، حيث كانت تتأرجح كرة كهربائية بسبب الرياح، كما راحت شلّة من الصبيان يصفّرون وهم يتشقلبون. وهكذا عبر من خلالهم السيد من سان فرانسيسكو كما لو أنه على المسرح، باتجاه قنطرة من القرون الوسطى تحت بيوت متحدة في كتلة واحدة، كان يوجد خلفها شارع مائل وصاخب مع دوامة هوائية لأشجار نخيل ترتفع أعلى من الأسقف المسطحة إلى جهة اليسار، ومع نجوم زرقاء في سماء سوداء في الأعلى وإلى الأمام، وكان يقود إلى المدخل المتلألئ للفندق في المقدمة. ومن جديد بدا الأمر كما لو أنَّ البلدة الحجرية الرطبة في الجزيرة الصخرية في البحر الأبيض المتوسط، قد انتعشت على شرف الضيوف من سان فرانسيسكو. وكما لو أنهم هم الذين جعلوا صاحب الفندق سعيدًا ولطيفًا على ذلك النحو، وكما لو أنَّ الموظف الصيني الذي يعمل مناديًا في الطوابق لتناول الغداء كان ينتظرهم، فراح يفعل ما ينبغي عليه أن يفعل بمجرّد أنهم ولجوا إلى بهو الفندق.

مكتبة
t.me/t_pdf

أما صاحب الفندق الذي استقبلهم بحفاوة وبأدب جمّ، والذي كان بالمناسبة رجلًا شابًّا وأنيقًا للغاية عند استقباله لهم، فقد أذهل السيد من سان فرانسيسكو للحظة واحدة فقط. عندما نظر إليه السيد من سان فرانسيسكو، تذكّر فجأة أنه في هذه الليلة، ومن بين أشياء أخرى كثيرة دهمته في الحلم أثناء نومه، كان قد رأى هذا الجنتلمان بالتحديد، وكما كان يبدو الآن بالضبط، في نفس هذه السترة القصيرة مع طيات دائرية، ومع نفس الشعر المسرّح إلى درجة اللمعان كالمرآة.

وإذ شعر بالدهشة، كاد أن يتوقف. ولكن بما أنه لم يبقَ في روحه، ومنذ زمن بعيد، مثقال ذرة خردل من تلك التي يقال لها مشاعر روحانية، فقد تلاشى عنده على الفور الإحساس بالدهشة. أخبر زوجته وابنته بخصوص ذلك التطابق الغريب والمذهل بين الحلم والواقع حينما كانوا يسيرون في ممر الفندق، ولكن على سبيل الطرفة. بيدَ أنَّ الابنة حدجته على الفور بنظرة تنمُّ عن شعور بالقلق، أحسّت فجأة بنوع من الانقباض في ناحية القلب، وانتابها شعور بوحدة رهيبة على هذه الجزيرة الغريبة والقاتمة.

كانت قد رحلت للتو شخصية رفيعة كانت ضيفة على جزيرة كابري. ولذلك خصصوا للضيوف من سان فرانسيسكو نفس ذلك الجناح الذي كانت تشغله تلك الشخصية الرفيعة. كما خصصّوا لهم خادمة هي الأكثر جمالًا ومهارة، وهي من بلجيكا، مع خصر دقيق ومنتصب بسبب المشد الخاص الذي

تلبسه باستمرار، وفي قلنسوة منشّاة على شكل تاج مسنن وصغير. بالإضافة إلى خادم هو الأبرز، وقد كان من مواطني صقليا، له شعر أسود فاحم وعينان ناريتان، إلى جانب لويجي القصير القامة والبدين، الذي كان من أمهر العاملين في الممرات الطابقية، والذي لطالما عمل في أماكن كثيرة خلال حياته. وبعد لحظات كان رئيس النُدُل، وهو فرنسي، يقرع باب غرفة السيد من سان فرانسيسكو بلطف شديد، حيث جاء لكي يسأل عمَّا إذا كان السادة الضيوف الذين وصلوا للتو سوف يتناولون طعام الغداء. وفي حال كان الجواب نعم، وهذا ما لم يكن يترك أدنى درجة من الشك، فسوف يعلمهم أنَّه سوف يكون على الغداء جراد البحر، ولحم بقر مشوي في الفرن، والهليون، بالإضافة إلى طير التذرُج [الدراج] وغير ذلك. كانت أرضية الغرفة ما زالت تتأرجح تحت أقدام السيد من سان فرانسيسكو -إلى هذا الحد كان شديدًا الغثيانُ الذي سبّبه له ذلك القارب الإيطالي الرديء جدًّا- ولكنه لم يكن مستعجلًا، بل قام بنفسه بإغلاق النافذة عندما دخل رئيس النُدُل، مع أنَّ هذا لم يكن من طبعه ولم ينجح بسهولة في ذلك، وكانت تفوح منها روائح المطبخ القائم على مسافة بعيدة، والأزهار المبللة في الحديقة. ومن ثمَّ أجاب بوضوح وعلى مهل أنهم سوف يتناولون طعام الغداء، وأنه يجب أن توضَع طاولتهم بعيدًا عن الأبواب، في أعمق مكان من القاعة، وأنهم يريدون أن يشربوا نبيذًا محليَّ الصنع. وكان رئيس النُدل يوافق مع كل كلمة يقولها له السيد، في نبرات مختلفة جدًّا، ولكنها جميعًا تحمل معنى واحدًا،

مفاده أنه لا يمكن أن يكون ثمة أدنى شك في صحة طلبات السيد من سان فرانسيسكو، وأنَّه سوف يتم تنفيذ كامل الطلبات بدقة. وفي نهاية المطاف أمال رأسه إلى جانب وسأل بمنتهى اللطف:

- هل هذا كلُّ شيء يا سيدي؟

وبعد أن تلقّى جوابًا «yes» بطيئًا، أضاف أنه سوف يكون عندهم اليوم في بهو الفندق حفل شعبي راقص «Tarantella»، حيث سيرقص كل من كارميلّا وجوزيبّي المشهورين في عموم إيطاليا وللسياح من كافة أنحاء العالم.

- لقد رأيتهما على إحدى البطاقات الدعائية -قال السيد من سان فرانسيسكو بنبرة غير مبالية- وهل جوزيبّي هو زوجها؟

- بل ابن عمِّها يا سيدي. أجاب رئيس النُدل.

وبعد أن فكّر قليلًا السيد من سان فرانسيسكو، صرَفَهُ بإيماءة من رأسه دون أن يقول شيئًا.

ثم راح يستعدّ كما لو أنه سوف يتم تتويجه اليوم: أشعل الأضواء في جميع أنحاء الجناح، بحيث إنه غمر جميع المرايا بانعكاس الضوء واللمعان، بما في ذلك الأثاث والصناديق المفتوحة، ثم راح يحلق ذقنه ويغتسل وهو يقرع الجرس باستمرار، بينما كانت ضربات أخرى مستعجلة ولجوجة للأجراس تهدر في الممر وهي تتقاطع مع ضرباته، وتنطلق من غرفة زوجته وابنته. اندفع لويجي في ردائه الأحمر، برشاقة

شهيرة للكثيرين من الأشخاص البدينين، وراح يقوم بإيماءات أثارت الضحك لدى الخدم، لدرجة أنهم ذرفوا الدموع بينما كانوا يهرولون بمحاذاته حاملين دلاء فخارية في أيديهم، قادماً على قرع الجرس، فطرق الباب بأصابعه بلطف ومع حياء مصطنع، ثم سأل بتوقير مبالغ فيه إلى درجة البلاهة:

– Ha sonato, signore*?

سُمِع صوت متمهّل مع صرير من خلف الباب، لطيف بطريقة عدائية:

– Yes, come in**

بِمَ كان يشعر السيد من سان فرانسيسكو؟ وماذا كان ينوي ويخطط في ذلك المساء الهام جدًّا بالنسبة إليه؟ كان مثله مثل جميع الذين تعرضوا إلى الغثيان والدوار، يريد أن يأكل وحسب. فراح يحلم بأول ملعقة من الشوربة، وبأول رشفة من النبيذ، وكان يقوم بالعمل الروتيني في التنظيف وارتداء الثياب مع بعض الإثارة والهياج اللذيذ، دون أن يترك وقتًا للأحاسيس والأفكار.

بعد أن حلق ذقنه واغتسل، قام بضبط عدد من أسنانه الاصطناعية كما يجب، ثم راح وهو واقف أمام المرآة يبلل فرشاة في إطار فضي، ويمسح بها بقايا أشعار بلون اللؤلؤ على رأسه الأسمر المائل إلى الصفرة. بعد ذلك ألبس جسده القوي

* هل قرعت الجرس يا سيدي. (إيطالية).
** نعم، ادخل. (انجليزية).

الذي بدأت الشيخوخة تدبُّ فيه بسبب تناول كميات كبيرة من الطعام ما جعل خصره يزداد بدانة، ملابس داخلية من الحرير بلون الكريمة، وارتدى في قدميه المجففتين والمسطحتين جوارب حريرية سوداء وحذاء خاصًّا لرقص الباليه، ثم جلس القرفصاء وراح يرتِّب طرفي البنطلون الأسود المرفوع بحمالات حريرية والقميص الناصع البياض بلون الثلج على صدره البارز، ثم حشر الأزرار اللامعة في الأكمام، لتبدأ معاناته مع التقاط الأزرار على العنق تحت الياقة القاسية. كانت أرضية الغرفة ما زالت تتأرجح بحيث إنّ نهايات الأصابع بدأت تؤلمه، إذ إنَّ الزرَّ كان في بعض الأحيان يقرص الجلد المتهدل عند تفاحة آدم، لكنه كان مصرًّا، وفي نهاية المطاف نجح في إنجاز ما أراد، ما جعل عينيه تلمعان من فرط الإجهاد والتوتر، وقد أصبح لونه رماديًا بسبب انضغاط حنجرته من قبل الياقة المشدودة بإحكام. عندها جلس مُتعبًا أمام طاولة الزينة، بحيث إنَّ صورته كانت تنعكس فيها بكامل قامته لتتكرر انعكاسات صورته في المرايا الأخرى.

– أواه، إنه أمر فظيع! دمدم متذمّرًا، ثم أخفض رأسه الأصلع المتين وراح دون أن يحاول أن يفهم ولا أن يدرك ما هو الأمر الفظيع هنا بالتحديد، يتأمل بدقة وبتأنٍّ أصابع يديه مع عُقَد من جراء إصابته بداء النقرس، وأظافره الطويلة والمعقوفة بلون لوزي، وهو يكرر باقتناع تام: هذا فظيع...

ولكن في هذه اللحظة دوّى في جميع أرجاء المبنى صوت

جهوري قوي للنداء الثاني، كما لو أنه في معبد وثني. فسارع السيد من سان فرانسيسكو إلى النهوض من مكانه، وقام بشدِّ ياقة القميص بقوة أكبر بواسطة ربطة العنق، وغطى بطنه بصدرية مفتوحة، بعد ذلك سوّى الأكمام وألقى نظرة أخيرة على نفسه في المرآة. «إنَّ كارميلّا تلك سمراء، ذات عينين لعوبتين، وهي أشبه بالمرأة الخلاسية، في فستانٍ زاهٍ، يغلب فيه اللون البرتقالي، وهي ترقص كما يفترَض، بطريقة استثنائية». راح يقول في نفسه. ومن ثم خرج من غرفته بحيوية واضحة وسار على السجاد باتجاه الغرفة المجاورة، غرفة زوجته، فسأل بصوت مرتفع عمّا إذا كانوا جاهزين.

- بعد خمس دقائق! أجاب صوتُ بنيّة صادح ومرح من خلف الباب.

- ممتاز! قال السيد من سان فرانسيسكو.

ثم مضى على مهل عبر الممرات والسلالم المفروشة بالسجاد الأحمر، وهبط ليبحث عن غرفة المطالعة. كان الخدم وهم يصادفونه في طريقهم يلتصقون بالحائط تقديرًا له، فكان يسير دون أن يكترث بهم البتة. كانت ثمة عجوز، وقد بدت محدودبة بشعر حليبي اللون ولكن في فستان رمادي فاتح خاص بالسهرة يكشف الكتفين والعنق، وكانت متأخرة على الغداء، فراحت تسرع بكل ما لديها من قوة ولكن بطريقة مضحكة، إذ كانت تجري مثل دجاجة، ولذلك سبقها بمنتهى السهولة. توقف

بالقرب من الباب الزجاجي لغرفة الطعام، حيث كان الجميع قد أخذوا أماكنهم خلف الموائد وبدؤوا بتناول الغداء. كانت توجد إلى جانبه طاولة مليئة بعلب السيجار الكوبي والسجائر المصرية، أخذ علبة سيجار ماركة مانيلا ورمى على الطاولة ثلاث ليرات. اقترب من الشرفة الشتوية وألقى نظرة خاطفة عبر النافذة، فهبّت عليه نسمة من الهواء اللطيف من قلب الظلام، وتأرجحت قمّة شجرة نخيل ضعيفة وهرمة كانت توزِّع سعفها على النجوم ما جعلها تبدو هائلة، كما سُمِع صوت بعيد رتيب للبحر. كان يقف في غرفة المطالعة، المريحة والهادئة، حيث توجد أضواء فوق طاولات القراءة فقط، شخص ألماني شائب راح يخشخش بأوراق الجرائد، وكان شبيهًا بالكاتب إبسِن، في نظارات فضية مستديرة، ومع عينين مجنونتين ذاهلتيَن. تأمله السيد من سان فرانسيسكو بنظرة فاحصة حيادية، ثم جلس في أريكة جلدية عميقة كانت تقف في الزاوية، بالقرب من مصباح له غطاء أخضر اللون، ثم وضع نظارته الأنفية وهزَّ رأسه بسبب الياقة التي تخنقه، وبدأ يقرأ مغطيًّا رأسه بالكامل بالجريدة. تصفّح عناوين عدد من المقالات بسرعة، وقرأ بضعة أسطر تتعلق بحرب البلقان التي لا تنتهي أبد الدهر، ثم قلب الصفحة بحركة مألوفة عنده، وإذ بالأسطر أمامه تتلألأ بلمعان زجاجي، ما جعل رقبته تتشنج، وعينيه تجحظان، ومن ثم انزلقت النظارة عن وجهه... اندفع إلى الأمام وقد أراد أن يلتقط قليلًا من الهواء، ثم راح يتنفس بطريقة غريبة مصدرًا أصوات أزيز عالية. ارتخى حنكه السفلي، كاشفًا عن الحشوات الذهبية في أسنانه،

سقط الرأس على كتفه وراح يتأرجح، أما القميص على الصدر فبرز بقوة إلى الأمام مثل صندوق، ثم راح الجسد بأكمله يتلوى، ورفع السجاد بكعب حذائه، زاحفًا على الأرضية وقد راح يصارع الموت بيأس.

لو لم يكن الألماني موجودًا في قاعة المطالعة، لكانت إدارة الفندق تدبّرت أمر هذا الحادث الرهيب والمؤسف بسرعة وحذق، وكانوا سحبوا السيد من سان فرانسيسكو من رأسه ومن قدميه بسرعة البرق إلى مكان بعيد عبر طرق خلفية خفية، ولما كان عرف شخص واحد من نزلاء الفندق شيئًا عمَّا حدث. ولكن الألماني اندفع إلى خارج قاعة المطالعة وهو يصرخ ويستغيث. وهكذا دبَّ الرعب في الفندق بأكمله، ولدى جميع الذين كانوا في غرفة الطعام، ما دفع بالكثيرين منهم لأن يتوقفوا عن الأكل، وانطلق عدد منهم نحو غرفة المطالعة وهم يقلبون الكراسي وقد امتقع لونهم، وراح يتردد سؤال بمختلف اللغات: «ماذا حدث، ما الذي حدث؟». دون أن يجيب أحد بشيء واضح، ودون أن يفهم أحد شيئًا، وذلك لأنّ الناس ما زالوا حتى الآن يصابون بالذهول أكثر دون أن يصدقوا الموت بأي شكل. راح صاحب الفندق يجري من شخص إلى آخر وهو يحاول أن يمنع الهاربين وأن يهدِّئ من روعهم بتأكيدات مستعجلة أنَّ ذلك مجرد أمر تافه، وأنها مجرّد غيبوبة حدثت مع السيد من سان فرانسيسكو. إلّا أنَّ أحدًا لم يكن يسمعه، بل رأى كثيرون كيف أنَّ الخدم والعاملين في طوابق الفندق ينزعون

ربطة العنق والصدرية عن ذلك السيد، وكيف راح هؤلاء يخلعون عنه سترته الحريرية، ولسبب ما حتى الحذاء من ساقيه في جوارب من الحرير ومع قدمين مسطحتين. أما هو فكان ما يزال يصارع. راح يقاوم الموت بحزم وبإصرار، دون أن يرغب بالاستسلام مهما كلف الأمر للموت، الذي انهال عليه فجأة وبطريقة قاسية. راح يهزّ رأسه بقوة ويتنفس مع حشرجة كما لو أنه مذبوح، ثم جحظت عيناه مثل شخص سكران. وعندما حملوه بسرعة وألقوا به على الفراش في الغرفة رقم ٤٣ -الغرفة الأصغر والأكثر تواضعًا، والبائسة جدًّا، وفوق ذلك الأكثر رطوبة وبرودة، في نهاية الطابق السفلي- جاءت ابنته راكضة مع شعر منفوش، في رداء مفتوح، مع نهدين مكشوفين، مرفوعين بواسطة مشد، ومن ثم جاءت زوجته العجوز وكبيرة الحجم، متأنقة وفي كامل لباسها جاهزة لتناول الطعام، فقد كان فمها مفتوحًا من الرعب والدهشة. ولكنه كان قد كفَّ في هذه اللحظة عن هزّ رأسه.

بعد ربع ساعة كان كلُّ شيء في الفندق قد عاد إلى الوضع الطبيعي. لكن المساء كان قد أفسد. عاد البعض إلى غرفة الطعام وأكملوا تناول الطعام بوجوه متجهمة، في حين أنَّ صاحب النُزل راح في تلك الأثناء يقترب تارة من هذا الشخص وتارة من شخص آخر، وهو يهز كتفيه دهِشًا في حالة إثارة كاملة ويشعر بنفسه مذنبًا من دون ذنب، ويؤكد للجميع أنه يدرك تمامًا «كم إنَّ هذا أمر مزعج»، وأنه سوف يتخذ «كافة

الإجراءات المتعلقة به» لإزالة كل ما هو مزعج. فاضطر لمنع حفل الرقص الشعبي «الترانتيلا»، كما أطفؤوا الأضواء الزائدة عن حاجتها، ثم ذهب معظم الضيوف إلى غرفة البيرة، وأصبح الجو هادئًا جدًّا، إلى درجة أنّ صوت دقات الساعة الجدارية كان مسموعًا في البهو الذي كان يوجد فيه ببغاء واحد يدمدم بصوت خشبي شيئًا ما وهو يعبث في قفصه قبيل النوم، حيث كان ينجح في أن يغفو وقد رفع ساقه إلى العمود العلوي السادس. كان السيد من سان فرانسيسكو مستلقيًا على سرير معدني رخيص، تحت شراشف من القماش الصوفي الخشن، وقد سقط عليها من السقف ضوء باهت من لمبة وحيدة. كان يجثم على جبهته الرطبة والباردة كيس مليء بالجليد. بدأ وجهه الرمادي وقد أصبح ميّتًا، ويصبح باردًا بالتدريج، ثم راحت تتلاشى الحشرجة الخارجة من فمه المفتوح «المضاء بلمعان حشوات الذهب». لم يعد السيد من سان فرانسيسكو هو الذي يتنفس بحشرجة، وإنما شخص آخر. كانت الزوجة والابنة والطبيب وبعض الخدم واقفين وهم ينظرون إليه. وفجأة حدث ما كانوا يتوقعونه، وما كانوا يخشون أن يحدث... توقفت الحشرجة. ثم راح الشحوب ينتشر ببطء شديد تدريجيًا في وجه المتوفى، أمام أعين الجميع، ثم راحت ملامحه تصبح غائمة وتتألق بجمال لطالما كان يليق به.

دخل صاحب الفندق. قال الطبيب له هامسًا: Gia e morto*.

* لقد مات. (إيطالية).

هزّ صاحب الفندق كتفيه بوجه خال من أي مشاعر. اقتربت منه السيدة وقد راحت دموعها تنهمر على وجنتيها ببطء، وقالت بحياء أنه بات من الضروري الآن أن تنقل جثة المتوفى إلى غرفته.

- أوه، لا يا سيدتي. ردّ صاحب الفندق معترضًا على عجل وبنبرة واضحة، ولكن من دون أي مجاملة، وباللغة الفرنسية وليس بالإنكليزية، وذلك لأنَّ صاحب الفندق كان في غِنى تام عن ذلك المبلغ التافه الذي كان يمكن أن يضيفه الضيوف من سان فرانسيسكو إلى صندوق أمواله. هذا أمر مستحيل يا سيدتي. قال صاحب الفندق وأردف موضحًا أنه يقدِّر عاليًا جدًّا ذلك الجناح، وأنه في حال حقق لها رغبتها، فإن جزيرة كابري بأكملها سوف تعرف بذلك، ومن ثم فإن السياح سوف يكفون عن النزول عنده.

جلست السيدة التي كانت تنظر إليه طيلة الوقت، على الكرسي وراحت تنتحب وقد غطّت فمها بمنديل. سرعان ما جفّت الدموع عند السيّدة واشتعل وجهها، فرفعت من نبرتها، وراحت تطالب وهي تتحدث بلغتها الخاصة وتنتحب، دون أن تصدق، أنهم لم يعودوا يحظوا بأدنى اهتمام وتقدير. ولكن صاحب الفندق واجهها برصانة وبتأدب: في حال لم تكن تعجبكم قوانين الفندق يا سيدتي، فهو لا يستطيع أن يقسركم على البقاء لوقت أطول، ومن ثم أعلن بكل ثقة أنه ينبغي أن تؤخذ الجثة اليوم عند الفجر من كلِّ بدٍّ، وأنه أحاط الشرطة

علمًا بالحادث، ولذلك سوف يأتي قريبًا ممثل عن الشرطة وسيقوم بالشكليات اللازمة. لعلك تتساءلين، سيدتي، ما إذا كان يمكن العثور على تابوت متواضع في كابري؟ للأسف لا، لا يمكن ولا بأي شكل من الأشكال، فضلًا عن أنه ما من وقت للقيام بذلك. لذلك يجب التصرف بطريقة ما أخرى... مثلًا، يتسلم الفندق مياه معدنية إنجليزية ضمن صناديق كبيرة وطويلة... يمكن نزع العوارض الخشبية الموجودة في داخل أحد هذه الصناديق وتحويله إلى تابوت مؤقت.

كان جميع مَن في الفندق نيامًا... فتحوا النافذة في الغرفة رقم ثلاثة وأربعين -كانت النافذة تطل على زاوية الحديقة حيث تنمو شجرة موز قزمة خلف جدار حجري مرتفع، مزوّد في أعلاه بقطع من الزجاج المكسور- ثم أطفأوا مصابيح الكهرباء وخرجوا بعد أن أغلقوا الباب بالمفتاح. بقي المتوفى في الظلمة، حيث راحت النجوم الزرقاء تنظر إليه من السماء، وإذ بجندب ينطلق في غناء خال من الهموم من داخل الجدار. كان ثمة خادمتان من خدم الطوابق تجلسان في الممر على حافة النافذة وهما تتهامسان. جاء لويجي يحمل كومة من الفساتين في يديه ويضع حذاء في قدميه.

- ?Pronto*. سأل باضطراب وبصوت خافت وهو يشير بعينيه إلى الباب الرهيب في نهاية الممر. ثم لوّح بحركة خفيفة بيدِه المتحررة نحو تلك الجهة. !Partenza. صاح هامسًا كما

* جاهز (إيطالية)

لو أنه يرافق قطارًا على الطريقة التي تحدث عادة في إيطاليا في محطات القطارات عند انطلاقها. فما كان من الخادمتين سوى أن اختنقتا بضحك مكتوم وسقط رأس كلٍّ منهما على كتف الأخرى.

بعد ذلك مضى بخطوات سريعة وهو يقفز بخفة إلى ذلك الباب، فطرقه بلطف وأمال رأسه إلى جانب ثم سأل هامسًا وبتأدب جمٍّ:

– Ha sonato, signore?

ثم أجاب على نفسه بنفسه وهو يضغط على عنقه مقدِّمًا حنكه السفلي إلى الأمام، وقال بنبرة مصحوبة بصرير، وبصوت حزين وبطيء كما لو أنَّ الصوت يأتي من خلف الباب:

– Yes, come in...

وعند الفجر، بعد أن طلع النهار خلف النافذة في الغرفة رقم ثلاثة وأربعين، وبعد أن حرّك الهواء الرطب الأوراق الممزقة لشجرة النخيل، وبعد أن غطت جزيرة كابري سماء صباحية زرقاء وتلونت بلون الذهب بمواجهة الشمس التي راحت تشرق في البعيد من خلف جبال إيطاليا، ولاحت قمة جبل مونتي سولارو البهية والصافية تمامًا، انطلق البناؤون إلى العمل حيث كانوا يقومون بتسوية الطرقات في الجزيرة للسياح، جلبوا إلى الغرفة رقم ثلاثة وأربعين صندوقًا طويلًا يستخدم لنقل المياه المعدنية. وسرعان ما أصبح الصندوق

ثقيلًا جدًّا، وقد ضغط على ساقي النادل الأصغر سنّاً الذي نقله بمهارة في عربة يجرها حصان واحد على الطريق الإسفلتية البيضاء، وقد راحت العربة تتحرك تارة إلى الخلف وتارة إلى الأمام عبر منحدرات كابري، ووسط الأسيجة الحجرية وكروم العنب، ومن ثم راح يهبط ويهبط نحو الأسفل حتى وصل إلى شاطئ البحر. كان الحوذي، وهو شخص واهن وغير صالح لشيء، بعينين حمراوين وفي سترة بالية مع أكمام قصيرة وفي حذاء مهترئ، وثمل -ذلك لأنه كان يلعب النرد في الحانة [trattoria] طيلة الليل- يسوط باستمرار حصانه القوي والذي كان مسرجًا على الطريقة الصقلية، وقد راحت ترن مختلف أنواع الأجراس المربوطة إلى اللجام المزين بكرات صوفية ملونة على نهايات سنّاد السرج النحاسي المرتفع، مع ريشة طير يبلغ طولها متر تقريبا، وقد راحت تهتز أثناء المسير، بارزة من خصلة الشعر على مقدمة رأس الحصان. كان الحوذي صامتًا، وقد سحقه نمط حياته الداعر والمليء بالرذيلة -لأنه خسر أثناء الليل حتى آخر فلس، جميع النقود التي كانت تملأ جيوبه. لكن الصباح كان طازجًا ومنعشًا، بحيث أن حالة السُكْر سرعان ما تنتهي في ظل الهواء النقي قرب البحر وتحت سماء صباحية، لتعود اللا مبالاة وعدم الاهتمام عند الإنسان من جديد. كما كان يواسي الحوذيَّ نفسه بتلك الأجرة المجزية وغير المُنتظَرة، التي أعطاه إياها السيد من سان فرانسيسكو الذي راح رأسه الميت يتأرجح من خلف الحوذي في صندوق خشبي. كان القارب الذي استقر مثل جُعل، في الأسفل

بعيدًا. وكان خليج نابولي الطافح والمكتظ بالزرقة الشفيفة والناصعة، قد أطلق آخر أصوات الصفارة، وقد كان صداها يتردد في أنحاء الجزيرة بمنتهى الحيوية والنشاط، الجزيرة التي كان كل منعطف فيها، وكل نتوء وكلّ حجر فيها مرئيًا بوضوح كامل من كافة الجهات، كما لو أنه لم يكن يوجد فيها أي هواء نهائيًا. لحقت سيارة كبيرة وقديمة كانت تقلّ السيدة والآنسة، بالنادل الصغير قرب الميناء، وقد كانتا شاحبتين وبأعين غائرة من جراء النحيب وحرمانهما من النوم طيلة ليلة كاملة. وبعد عشر دقائق كانت الباخرة الصغيرة تثير ضجيج الماء من جديد وتسرع باتجاه سورنتو، إلى كاستيلاماري، حاملة معها العائلة من سان فرانسيسكو بعيدًا عن كابري وإلى الأبد. وأما الجزيرة فقد انتعش فيها السلام والطمأنينة من جديد.

عاش، قبل ألفي سنة، على هذه الجزيرة، شخص تورّط بارتكاب أفعال قاسية وقذرة، وقد حاز لسبب ما سلطة على ملايين الناس. ولأنه كان هو نفسه مضطربًا من جراء عبثية تلك السيطرة، ولأنه كان يخشى أن يقوم شخص ما بقتله غيلة وخلسة، راح يرتكب المجازر بقسوة تفوق كل تصوّر. وقد تذكّرته البشرية إلى الأبد، وها هم أولئك الذين كانوا، بمجملهم، ولسبب غير مفهوم أيضًا بنفس الدرجة، قساة مثله تمامًا في حقيقتهم، يهيمنون اليوم على العالم، وها هم يتقاطرون من جميع أرجاء الدنيا لكي يشاهدوا أنقاض ذلك البيت الحجري الذي كان يعيش فيه على قمة أحد أكثر

مرتفعات الجزيرة انحدارًا. كان جميع أولئك الذين قصدوا جزيرة كابري لهذا الغرض، ما زالوا نائمين في ذلك الصباح البديع في مختلف الفنادق، على الرغم من أنَّه جرى استقدام عدد من الحمير الضئيلة وبلون الفئران مع سروج حمراء اللون إلى مداخل الفنادق، وذلك لأنه كان ينبغي أن يركب عليها اليوم، بعد أن يستيقظوا ويأكلوا حتى الشبع، شبّان وكهول من الأمريكيين والألمان، ومن كلا الجنسين. ومن ثم كان يجب أن تعدو وراءهم عجائز جزيرة كابري الفقيرات والمتسولات وهنَّ يحملن العصي في أيديهن المليئة بالعروق، وذلك عبر الطرق الحجرية، ومن ثم صعودًا في الجبال حتى يصلوا إلى أعلى نقطة في مونتي - تيبريوس. وإذ شعر المرتحلون بالطمأنينة حين عرفوا بأن جثّة الكهل الذي توفي من سان فرانسيسكو، والذي كان ينوي الركوب معهم، ولكنه دبَّ الرعب فيهم بسبب تذكيرهم بالموت بدلًا من ذلك، قد أرسلت إلى نابولي، فقد ناموا بعمق كبير، ولذلك كانت الجزيرة هادئة وكانت الحوانيت فيها ما تزال مغلقة. وحده البازار في الساحة الصغيرة كان يعمل، وكانوا يبيعون السمك والخضراوات، ولم يكن يوجد فيه سوى أناس من العامة. كان من بينهم، كما هو الحال دائمًا، لورنزو، الذي كان كعادته يقف من دون أن يقوم بأي عمل، وهو عجوز طويل القامة، صاحب قارب صغير، ومجرّد متسكع وسيم بلا أي هموم على الإطلاق. كانت إيطاليا بأكملها تعرفه، وقد سبق وقام بدور الموديل بالنسبة للكثير من الرسامين، كان قد اصطاد ليلًا عددًا من جراد البحر «الكركند» فحملها وباعها

بسعر زهيد، حيث كانت تخشخش في مئزر الطباخ الذي يعمل في نفس ذلك الفندق الذي أمضت ليلتها فيه العائلة من سان فرانسيسكو، وقد أصبح بإمكانه الآن أن يقف بكل هدوء حتى حلول المساء وهو يتطلع حوله بنظرة ملكية، متباهيًا بثيابه الرثة وبغليونه الفخاري وبقبعته الصوفية الحمراء وقد أمالها إلى جانب لتغطي إحدى أذنيه. في هذه الأثناء كان اثنان من سكان الجبال في أبروتسو يهبطان من أناكابري* عبر سفوح جبل مونتي سولارو، والطريق الفينيقية القديمة التي تمّ شقّها في السفح الصخري، وعبر منحدرات تلك الطريق الحجرية. كان أحدهما يحمل مزمارَ قُربة تحت معطفه الجلدي -وهو عبارة عن جلد ماعز كبير مع أنبوبين اثنين- أما الثاني فكان يحمل ما يشبه مزمارًا خشبيًا متعدد القصبات. كانا يسيران وكانت البلاد بأكملها، السعيدة والساحرة والمشمسة تمتد أسفلَ منهما: بما في ذلك البروزات الحجرية للجزيرة، التي كانت تقوم تحت أقدامهما بالكامل تقريبًا، وتلك الزرقة الخرافية التي كانت الجزيرة تسبح فيها، وأبخرة الضباب الصباحي المتلألئة فوق البحر باتجاه الشرق، تحت أشعة الشمس الساطعة التي بدأت تجعل الجوَّ دافئًا جدًّا، وهي ترتفع أعلى وأعلى، بالإضافة إلى جبال إيطاليا بلون اللازورد الضبابي، وقد بدت متقلقلة في أوقات الصباح، جبالها القريبة والبعيدة، التي تعجز الكلمات

* أناكابري، في جزيرة كابري، في مدينة نابولي الحضرية بإيطاليا: تعني البادئة اليونانية القديمة «أعلى» أو «أعلاه»، مما يدل على أن أناكابري تقع على ارتفاع أعلى في الجزيرة من كابري. إداريًا، لديها وضع منفصل عن مدينة كابري. الموقع الأكثر أهمية في القرية هو فيلا سان ميشيل. المترجم

عن وصف جمالها. تباطأ الرجلان في منتصف الطريق. كان ثمة تمثال للسيّدة أمّ الرب فوق حافة الطريق، في مغارة السفح الصخري لجبل مونتي سولارو، وقد أنارتها أشعة الشمس، فكانت مغمورة في دفئها وفي تألقها وقد انتصبت بهية في أردية بيضاء كالثلج من الجص، وفي تاج ملكي بلون ذهبي صدئ بفعل عوامل الطقس الرديء. كانت تبدو وديعة ورحيمة، مع عينين مرفوعتين نحو السماء، باتجاه دار النعيم الأبدية لابنها المبارك ثلاث مرات. قام كلٌّ منهما بنزع القبعة عن رأسه، ثم لامس شفتيه بالمزمار، وانطلقا في تسبيحات ساذجة وبهيجة مفعمة بالاستكانة لهذه الشمس، ولهذا الصباح، ولها، العذراء الحامية لجميع المظلومين في هذا العالم الشرير والرائع، ولذلك الذي ولد من رحمها في مغارة بيت لحم، في بيت الراعي الفقير، في أرض يهودا البعيدة.

أما جثة الكهل المتوفى من سان فرانسيسكو فقد عادت إلى موطنها، إلى القبر على ساحل العالم الجديد. وبعد أن تعرّضت لشتى أنواع الإذلال وللكثير من عدم الاهتمام البشري، إذ راحت الجثة تنتقل من مستودع إلى مستودع آخر في الموانئ، وصلت أخيرًا إلى نفس تلك السفينة الشهيرة ذاتها التي حملته قبل مدة قصيرة محاطًا بمختلف أنواع التقدير، إلى العالم القديم. لكنهم هذه المرة كانوا يخفونه عن أعين الأحياء، ولذلك وضعوه ضمن تابوت مطلي بالقطران في الجوف المظلم للسفينة.

ومن جديد، ومرة أخرى انطلقت السفينة في رحلتها البحرية البعيدة. فاجتازت البحر ليلًا بمحاذاة جزيرة كابري، وقد بدت أضواء السفينة حزينة وراحت تتلاشى ببطء في البحر المظلم، بالنسبة لمن كان ينظر إليها من الجزيرة. بينما كانت صالات السفينة المتألقة بالأضواء المتلألئة للثريات تشهد كالعادة حفل باليه راقصًا في تلك الليلة.

كما أنّ حفل الباليه تكرر في الليلة التالية والتي تلتها، ومرة أخرى وسط العاصفة الثلجية الشديدة، وقد هبّت على المحيط الذي كان يزمجر مثل قدّاس الجنازة، وقد امتلأ بتلال حزينة بسبب الزبد فضي اللون. لم تكن أضواء السفينة النارية التي لا تُحصى مرئية بشكل واضح من خلف الثلج للشيطان الذي راح يراقب من أعلى جبل طارق، من فوق البوابة الصخرية لعالمين اثنين، السفينة وهي تغادر في الليل وفي الزوبعة. كان الشيطان هائلًا مثل صخرة عملاقة، ولكن السفينة كثيرة الطبقات ومتعددة المحركات التي كانت تُعدُّ فخرَ الإنسان الجديد مع قلب قديم، كانت أكثر ضخامة منه. راحت العاصفة تضرب في حبال السفينة وفي أنابيبها ذات الفتحات الواسعة التي باتت بيضاء اللون بسبب الثلج، لكنها بقيت صامدة وثابتة، عظيمة ومهيبة. كانت توجد على سطحها العلوي قمرات مريحة ومضاءة بشكل باهت، وقد ارتفعت شامخة وسط الزوبعة الثلجية، وحيث كان يأخذ قيلولة من النوم المريح المشوب بالقلق، الربّان الضخم البنيان والذي كان يبسط

سلطته على السفينة بأكملها فكان أشبه بإله وثني. التقط سمعه العواء الثقيل والصراخ الغاضب لصفارات الإنذار، التي كانت العاصفة تكتمها، ولكنه هدّأ من روعه بسبب قرب ما كان غير واضح بالنسبة له هو نفسه في نهاية المطاف، وما كان خلف جدار مقصورته الكبيرة والتي كما لو أنها مدرّعة، راحت تمتلئ بضجيج غامض، وبارتجاج وتقصّف جاف، لأضواء زرقاء راحت تومض وتتناثر من حول عامل التلغراف شاحب الوجه مع خوذة نصف معدنية على رأسه. وفي القسم السفلي تمامًا، في جوف «أطلانتس» المغمور تحت سطح الماء، أصبح الفولاذ يتألق بشكل باهت، وراحت المراجل الضخمة والثقيلة جدًّا ومختلف الآلات الأخرى، تصدر أصوات أزيز لأبخرة، وينزُّ منها الماء المغلي والزيت. ومن نفس ذلك المطبخ الذي كان تسخينه من أسفله، بنيران أشبه بنيران الجحيم، والتي كانت تُطبَخ عليها حركة السفينة، راحت تتأجج وتهيّج طاقات مرعبة من حيث تركيزها، وهي تنتقل إلى عارضة* السفينة بالذات، إلى ذلك القسم تحت الأرضي الطويل إلى أبعد حد، إلى ذلك النفق المستدير المضاء بالكهرباء بدرجة ضعيفة، حيث يدور ببطء وبدقة تزهق الروح البشرية محور عملاق هائل في مجراه الزيتي، كما لو أنه غول حي يتمدد في ذلك النفق الشبيه بفوهة بركان أو هاوية. وأما القسم المتوسط في «أطلانتس»، حيث

* العارضة هي العنصر الهيكلي الأكثر طولاً في السفينة. يكون لها غرض هيدروديناميكي وموازن في بعض المراكب الشراعية. بما أن وضع العارضة هو الخطوة الأولى في بناء السفينة، في تقاليد بناء السفن البريطانية والأمريكية. المترجم

توجد غرف المطاعم وصالة الباليه، فكان يفيض بالأضواء وبالفرح والسعادة، وقد راحت الحشود المتأنقة تملأ المكان بأحاديث صاخبة، ويفوح برائحة الأزهار النضرة وتعزف فيه فرقة موسيقية على آلات وترية. ومن جديد راح ذلك الثنائي العاشق، الرشيق والنحيل الذي تمَّ استئجاره، يتلوى في حركات متشنجة وأحيانًا في اصطدام مؤلم وسط ذلك الحشد من الناس، وفي أجواء مليئة بأضواء متألقة ووسط الحرير واللآلئ، والنساء بأكتافهن وصدورهن شبه العارية. كانت تلك الفتاة المتواضعة والجميلة إلى حدِّ الإثم، مع رموش منخفضة ومع تسريحة غير بريئة، وذلك الشاب طويلُ القامة مع شعر أسود كما لو أنه مستعار، ذو الوجه الشاحب بسبب المساحيق، في حذاء لامع أنيق جدًّا، وفي معطف ضيق مع ذيول طويلة، والذي كان وسيمًا وأشبه بعلقة ضخمة، لم يكن أحد يعلم أن هذا الثنائي العاشق قد سئم ومنذ زمن طويل من التظاهر بالألم المصطنع من جراء العذاب المبارك على إيقاع موسيقى حزينة ماجنة، وأنه ثمة تابوت في مكان عميق، عميق جدًّا تحتهم، في أسفل جوف السفينة المظلم، إلى جوار باطنها القاتم والملتهب، وقد راحت تحاول جاهدة أن تعبر الظلام والمحيط والعاصفة.

أكتوبر عام ١٩١٥

انتقام

كان ثمة امرأة في، الفندق الذي أقطن فيه، في مدينة كانْ الفرنسية، حيث نزلتُ في أواخر شهر أغسطس بقصد الاستجمام والسباحة ورسم المناظر الطبيعية، غريبة الأطوار، إذ كانت تشرب قهوتها الصباحية وتتناول طعام الغداء على طاولة صغيرة بمفردها وهي على نفس الدرجة من التركيز والاستغراق، وبوجه كامد كئيب، كما لو أنها لا ترى أي شخص أو شيء آخر، لتغيب بعد تناول القهوة حتى المساء تقريبًا. كان قد مضى على وجودي في الفندق أسبوع كامل وكنتُ أراقبها باهتمام بالغ: شعر أسود كثيف، مع ضفيرة كبيرة سوداء تلتف حول الرأس، جسم سمين في فستان أحمر مزين بأزهار سوداء من قماش الكريتون، ولها وجه جميل خشن الملامح، ونظرة متجهمة. كانت تقوم على خدمتنا فتاة من إقليم الألزاس، تبلغ حوالي خمس عشرة سنة من العمر، ولكنها ذات صدر كبير ومؤخرة عريضة، ممتلئة الجسم بطريقة لطيفة، وحيوية إلى درجة مذهلة، فضلًا عن أنها كانت حمقاء وظريفة إلى درجة كبيرة واستثنائية، حيث كانت تتفتّح مع كلِّ كلمة تقال لها بذعر

ومع ابتسامة. وإذ التقيتها ذات يوم في الممر، سألتها:

- قولي لي يا أوديت، مَن تكون هذه السيدة؟*

رفعت إليَّ عينيها الزرقاوين الزيتيتين، وعلى وجهها علامات الاستعداد للابتسامة والذعر وقالت:

- أي سيدة يا سيدي؟

- تلك السمراء، هناك.

- على أي طاولة يا سيدي؟

- على الطاولة رقم عشرة.

- إنها سيدة روسية يا سيدي.

- حسنًا وماذا أيضًا؟

- لا أعرف شيئًا عنها يا سيدي.

- وهل هي نزيلة عندكم منذ مدة طويلة؟

- منذ ثلاثة أسابيع يا سيدي.

- وهل هي وحدها؟

- لا يا سيدي، بل كان ثمة رجل...

- هل هو شاب ذو جسم رياضي؟

* كُتب هذا الحوار باللغة الفرنسية.

- لا يا سيدي، بل كان شارد اللب وعصبي المزاج كثيرًا.

- ومن ثم اختفى؟

- بلى يا سيدي...

هكذا إذن. قلتُ في نفسي. لقد أصبح الأمر الآن واضحًا بعض الشيء، ولكن إلى أين تذهب صباح كلِّ يوم؟ هل ما زالت تبحث عنه طوال الوقت يا تُرى؟

في اليوم التالي، وبعد تناول القهوة بقليل، تناهى إلى سمعي من خلال النافذة المفتوحة وَقْع خطوات على الحصى في حديقة الفندق، نظرت من النافذة: كانت هي نفسها، برأس مكشوف كعادتها دائمًا، مع مظلّة شمسية من نفس لون الفستان، ذاهبة إلى مكان ما بخطوات سريعة في حذاء رياضي من نوع جِفال. التقطت عكازي، وقبعتي من القش وخرجتُ مسرعًا في إثرها. انعطفت من زقاقنا إلى بولفار كارنيو، فانعطفت وراءها على أمل بأنها لن تلتفت إلى الوراء، ولن تشعر بوجودي لكونها شاردة اللب دائمًا. وبالفعل، وصلتْ إلى محطة القطارات دون أن تلتفت على الإطلاق. وفي المحطة لم تلتفت أيضًا، بل ركبت في مقصورة من الدرجة الثالثة. كان القطار ذاهبًا إلى مدينة تولون، ولذلك قمت بشراء تذكرة حتى مدينة سان رافائيل، ثم صعدت إلى المقصورة المجاورة. لم تكن وجهتها بعيدة كما يبدو، ولكن إلى أين؟ مددت رأسي عبر نافذة المقصورة أثناء توقف القطار في كلِّ

من بابولا وفي تيول... وأخيرًا، عندما مددتُ رأسي في محطة ترياس، شاهدتُها تقصد باب الخروج من المحطة. قفزت من عربة القطار بسرعة وذهبتُ وراءها تاركًا مسافة أمان على كلّ حال. لقد كان عليَّ هذه المرة أن أسير إلى مسافة طويلة جدًّا، في طريق إسفلتي متعرّج يسير في محاذاة منحدرات الشاطئ البحري، وفي ممرات صخرية شديدة الانحدار تعبر غابة صغيرة من أشجار الصنوبر، حيث مضت من خلالها لتختصر الطريق إلى الشاطئ حيث توجد الخلجان التي تقطّع الشاطئ في هذه المنطقة الصخرية الجرداء والمغطاة بالغابة، إنه منحدر الجبال الساحلية. كانت الظهيرة تقترب، لذلك كان الوقت حارًّا وكان الهواء ساكنًا وكثيفًا بسبب رائحة الإبر الصنوبرية الساخنة، دون أن يكون ثمة حسٌّ أو صوت لأي إنسان. وحدها حشرات زيز الحصاد كانت تقصف وتصرُّ. كما كان البحر المفتوح باتجاه الجنوب يتلألأ وهو يقفز بأمواج على شكل نجوم كبيرة فضية اللون. فجأة، راحت تركض عبر الدرب الذي يقود إلى الخليج الأخضر وسط صخور الجرف الحارّة، حيث رمت المظلّة على الرمل وخلعت حذاءها بسرعة، ثم راحت تنزع ثيابها وهي عارية القدمين. استلقيتُ على الجرف الصخري الذي كانت تفكُّ أزرار فستانها الداكن المزهّر تحته، ورحتُ أنظر إليها وأقول لنفسي أنَّ ثوب السباحة لديها لا بدَّ أن يكون فظيعًا أيضًا. إلّا أنه لم يكن عليها أي ثوب سباحة تحت الفستان، بل كانت ترتدي تحته قميصًا قصيرًا فقط. خلعت القميص، ثم سارت بجسمها بنيّ اللون من جراء الشمس،

القوي والمتين على الحصى باتجاه المياه اللامعة والشفافة، وهي تشدُّ ربلتي ساقيها الجميلتين، وتهزُّ ردفيها المشدودين والواضحين، وتتلألأ بفخذين أسمرين من الشمس. وقفتْ عند حافة الماء قليلًا -يفترَض أنها كانت تزرُّ عينيها من لمعان الماء الساطع- ثم بدأت تخبط في الماء بقدميها وجلست فيه حتى غمرها إلى مستوى كتفيها، بعد ذلك انقلبت واستلقت على بطنها، مدّت ساقيها ثم تمددت نحو رمل الشاطئ حيث ألقت مرفقيها ورأسها الأسود عليه. في البعيد كان سطح البحر المنبسط يرتجف بلون فضي شوكي الشكل على اتساع مداه وبمنتهى الحريّة، في حين راحت الشمس تُلهِب بأشعتها الحارقة الخليج المغلق ومجمل نعومته الصخرية، بحيث إنَّ الهدوء كان السائد في تلك الصحراء الصخرية القائظة والغابة الجنوبية القزمة، إلى درجة أن صوت الشبكة البلَّورية للماء، وهي تصطدم أحيانًا بالجسد المستلقي على بطنه تحتي، كان مسموعًا، لتغمر الظهر اللامع منها وردفيها وفخذيها الممتلئين المتباعديَن. كنت أشعر وأنا مستلق أراقب من خلف الصخور، بالاضطراب المتزايد من رؤية هذا العري الساحر، كما رحت أنسى أكثر فأكثر عبثية ووقاحة تصرفي، فرفعتُ رأسي بعض الشيء ورحت أدخِّن الغليون من فرط اضطرابي. وفجأة رفعت هي أيضًا رأسها وراحت تحدِّق بي من أسفل إلى أعلى بطريقة استفهامية، مع بقائها مستلقية في الوقت نفسه في ذات الوضعية التي كانت عليها. نهضتُ بشكل كامل دون أن أعرف ماذا عليَّ أن أفعل وأن أقول. كانت أوّلَ من بدأ الحديث:

- كنت أسمعُ طوال الطريق كما لو أنَّ أحدًا ما يتبعني. لماذا لحقت بي؟

قررت أن أجيب من دون لفٍّ أو دوران.

- أرجو أن تعذريني، لقد فعلتُ ذلك من باب الفضول...

قاطعتني:

- صحيح، يبدو أنك شخص فضولي. لقد قالت لي أوديت أنك سألت واستفسرت عني. وقد عرفتُ عن طريق الصدفة أنك روسي، ولذلك لم أستهجن الأمر، فالروس جميعهم فضوليون إلى أبعد حد. ولكن مع ذلك، لماذا لحقت بي؟ إلى هنا؟

- بسبب ذلك الفضول وحسب. بوجه خاص، وبسبب طبيعة عملي.

- نعم، أنا أعرف أنك فنان تشكيلي.

- وأنت موضوع مناسب للرسم جدًّا. عدا عن أنك كنت تخرجين كلّ صباح إلى مكان ما، وهذا ما أثار فضولي وأغراني بشكل كبير: إلى أين، ولماذا؟ كنت تتخلّين عن وجبات الفطور، وهذا نادرًا ما يفعله نزلاء الفندق. كما أنَّ منظرك كان يبدو غير مألوف، وكنتِ ساهية باستمرار. فضلًا عن أنك تحافظين على نوع من الوحدة، وبصمت، كما لو أنك تحتفظين بسرٍّ ما. وأما لماذا لم أغادر بمجرّد أنك بدأت تخلعين ثيابك...

– أما هذا فمفهوم. قالت، ثم صمتت برهة وأضافت: سوف أخرج الآن من الماء. هيا استدر للحظة ثم تعال إليَّ. لقد أثرت أنت أيضًا الفضول عندي.

– لن أستدير أبدًا وبأي شكل. أجبتها. فأنا فنان، ونحن لسنا أطفالًا.

هزّت كتفها وقالت:

– حسنًا، الأمر سيّان بالنسبة لي. ثم نهضتْ بكامل قامتها، عارضة جسمها من الأمام وبكامل مفاتنه الأنثوية، ثم سارت بتمهّل على الحصى، ألقت على رأسها قميصها الزهري ليظهر من خلاله فيما بعد وجهها الصارم، ثمَّ أنزلت القميص على جسدها المبلل. هرعتُ إليها وجلسنا قريبين من بعضنا.

– لعلّه توجد لديك، بالإضافة إلى الغليون، سجائر أيضًا؟ سألتني.

– بلى، يوجد معي.

– أعطني سيجارة.

أعطيتها سيجارة وأشعلتُ عود ثقاب، ثم أشعلت السيجارة لها.

– شكرًا. ثمَّ أخذت سحبةً عميقة من السيجارة وراحت تنظر إلى البعيد وهي تحرّك أصابع قدميها دون أن تلتفت نحوي، ثم

قالت فجأة بلهجة ساخرة:

– إذن، ما زال بإمكاني أن أثير الإعجاب؟

– جدًّا! هتفتُ. لديك جسد جميل وشعر رائع والعينان أيضًا... لكن تعابير وجهك شريرة.

– هذا لأن بالي مشغول، بالفعل، بإحدى الأفكار الشريرة.

– هذا ما ظننتُه. لا بدَّ أنك افترقت منذ مدة قصيرة عن شخص ما، وقد تخلّى عنك...

– لم يتخلَّ عني وحسب، وإنما فرَّ مني. تركني وهرب. كنتُ أدرك أنه شخص مأفون وسوف أفقده، ولكني كنتُ مغرمة به إلى أبعد حد. تبيَّن أنني كنتُ مغرمة بشخص نذل. كنت قد التقيتُه قبل حوالي شهر ونصف في مونتي كارلو. كنت في ذلك الوقت ألعب القمار في الكازينو. كان يقف إلى جانبي، وكان يلعب هو الآخر. كان يراقب بعينين مجنونتين حركة الكرة وكان يربح باستمرار، ربح مرة وثانية وثالثة ورابعة... وأنا بدوري كنت أربح، وقد لاحظ ذلك فقال لي: «كفى! بالفعل!»*.

ثم استدار نحوي وأردف:

– N'est-ce pas, madame**?

أجبته وأنا أضحك:

---

* وردت في النص الأصلي العبارة على النحو التالي: شاباش، Assez – كفى، بالفعل! وكلمة شاباش – من كلمة «السبت» اليهودية وتعني التوقف عن العمل. المترجم

** كفى، أليس كذلك يا سيدتي؟ (فرنسي)

- بلى، شاباش!.

- آه، أنتِ روسية إذن؟.

- كما ترى.

- إذن، هيا بنا نلهو ونمرح!.

نظرتُ إليه، كان رثَّ الثياب جدًّا، ولكنه شخص أنيق المظهر... أما الباقي فليس من الصعب التكهن به.

- نعم، ليس صعبًا. شعرتما بتقارب بينكما أثناء تناول العشاء، ورحتما تتحدثان بلا توقف، وحتى إنكما شعرتما بالدهشة عندما حان وقت الافتراق...

- بالضبط، تمامًا. لكننا لم نفترق بل رحنا ننفق ما كسبناه من مال. عشنا في مونتي كارلو، وفي لا توربي*، وفي نيس. لا بدَّ أنك تدرك كم إنَّ هذا مكلف! حتى أننا عشنا لبعض الوقت في فندق Cap d'Antibes**، حيث تظاهرنا بأننا من الأثرياء... في حين أنَّ مدخراتنا راحت تتناقص وتتناقص، إلى درجة أننا فشلنا في السفر إلى مونتي كارلو مقابل آخر ما تبقى معنا من نقود. بدا يختفي ويعود إليَّ مع نقود، مع أنه كان يأتي بمبالغ تافهة، حوالي مائة فرنك أو خمسين فرنك فرنسي. ثم قام ببيع أقراطي في مكان ما، وخاتم زواجي -فقد كنت متزوجة في

* لا توربي La Turbie- بلدة فرنسية تقع في إقليم الألب البحرية من منطقة بروفانس. المترجم
** رأس أنتيبس على بحر الليغوري في بلدية أنتيبس، في مقاطعة الألب البحرية. موقع سياحي شهير يرتاده نجوم العالم. المترجم

ذلك الوقت- كما باع الصليب الذهبي الذي ألبسه تحت ثيابي. وبالطبع كان يؤكد لي بأنه على وشك الحصول على مبلغ كبير يدين به أحدهم له، وأن لديه أصدقاء أثرياء جدًّا ومعارف من النبلاء. هكذا قال، بالضبط تمامًا. ولكني لا أعرف حتى الآن مَن هو، لأنه كان يتحاشى الحديث بالتفصيل وبوضوح عن حياته السابقة، وأنا بدوري لم أكن أكترث كثيرًا لذلك. يجب أن يكون لديه ماض مألوف كما هو حال الكثيرين من المهاجرين: عاش في بطرسبورغ، خدم في فوج رائع، ثم جاءت الحرب والثورة. ثم غادر إلى القسطنطينية. يدّعي أنه نجح في تدبير أموره في باريس بفضل معارفه وعلاقاته السابقة، وأنه قادر أن يتدبر ذلك دائمًا، وبشكلٍ لا بأس به. أما الآن، فهو يعيش في مونتي كارلو مؤقتًا، وأنَّ لديه فرصة حقيقية، كما كان يقول، للاستعانة ببعض الأصدقاء من أصحاب المقامات الرفيعة. كدتُ أُصاب باليأس، وشعرتُ بالإحباط حقًّا، أما هو فكان يسخر من ذلك وحسب: «كوني مطمئنة، يمكنك الاعتماد عليَّ، وقد قمتُ ببعض الخطوات الجدّية في باريس، وأما ما هي هذه الخطوات؟ فهذا، كما يقال، ليس من اختصاص المرأة...».

- حسنًا، هكذا إذن...

- ماذا يعني حسنًا، وهكذا إذن؟ قالت. ثم استدارت نحوي فجأة وهي تقدح شررًا بعينيها وترمي بعقب السيجارة المطفأة بعيدًا. هل هذا كله يروق لك؟

التقطتُ يدَها وضغطتُ عليها.

- يجب أن تشعري بالخجل! سوف أرسمك إما على شكل ميدوسا* أو على شكل نيمسيس!**

- هل هذه هي إلهة الانتقام؟

- نعم، وهي شريرة جدًّا.

ضحكت بحزن وقالت:

- نيمسيس! أنا نيمسيس! يا لك من إنسان طيب القلب... أعطني سيجارة أخرى. لقد علّمني التدخين... بل علّمني كلَّ شيء!

أشعلت سيجارتها ثم راحت تحدِّق في البعيد من جديد. فقلتُ:

- نسيتُ أن أقول لكِ كم كنتُ مدهوشًا حين عرفت المكان الذي تقصدينه للسباحة! إنها مسافة طويلة تقطعينها كل يوم، ولكن لأي هدف؟ أما الآن فقد أصبحت أدرك: إنك تبحثين عن الوحدة.

---

* ميدوسا أو مدوسا: كانت في البدء بنتاً جميلة، غير أنها مارست الجنس مع بوسيدون في معبد أثينا وهذا ما جعل آثينا تغضب، فحولتها إلى امرأة بشعة المظهر كما حولت شعرها إلى ثعابين وكان كل من ينظر إلى عينيها يتحول إلى حجر. وبما أن مدوسا كانت قابلة للموت فقد تمكن برسيوس بمساعدة هرمس، حسب الميثولوجيا الإغريقية من القضاء عليها وقطع رأسها لما نظر إلى صورة انعكاسها في درع أثينا، وأهدى رأسها لأثينا التي كانت قد ساعدته وقامت بوضعه على درعها المسمى بالأيغيس. مزودة بدرع عاكس، وصنادل مجنحة، وكيس خاص لرأسها، تتسلل فرساوس إلى ميدوسا بينما هي نائمة، وتقطع رأسها، ثم تستخدمها كسلاح لتحويل الأعداء إلى حجر. أنجبت ميدوزا من بوسيدون طفلين. المترجم

** نمسيس في الأساطير اليونانية، إلهة حارسة على أقدار الأشياء، وحامية للآلهة من رذائل البشر. المترجم

- نعم...

كان القيظ يتدفق بنفس الدرجة من القوّة والكثافة، كما تابعت حشرات أزيز الحصاد طقطقتها وصريرها على أشجار الصنوبر الساخنة والفواحة بنفس الإصرار والمواظبة، بحيث إنني شعرتُ كم ينبغي أن يكون شعرها الأسود وكتفاها العاريتان وساقاها ساخنة في هذه اللحظة، فقلت لها:

- دعينا نذهب إلى الظلِّ، لأن أشعة الشمس باتت حارقة جدًّا، وهناك سوف تكملين لي حكايتك المثيرة للحزن.

تنبّهتْ.

مكتبة
t.me/t_pdf

- لنذهب إلى الظل...

ذهبنا متجاوزين الخليج الصغير نصف الدائري، وجلسنا في الظلِّ المضيء والقائظ للصخور حمراء اللون. التقطتُ يدَها من جديد وبقيت ممسكًا بها في يدي. لم تنتبه لذلك.

- وماذا يمكنني أن أضيف هنا؟ لم تعد لديَّ الآن رغبة بأن أتذكّر مجمل هذه الحكاية الحزينة والمخزية بالفعل. لعلك تظن، أنني مجرّد امرأة عادية تعيش على حساب هذا الرجل النصّاب أو ذاك. لا شيء من هذا القبيل على الإطلاق. أما الماضي عندي فهو أيضًا عادي من كافة الجوانب. كان زوجي ضابطًا في الجيش التطوعي، في جيش دينيكين أولًا، ثم في جيش فرانغِل، وعندما بلغ الأمر بنا أننا هاجرنا

ووصلنا إلى باريس، راح يعمل سائق سيارة عمومية. لكنه بدأ يتعاطى الكحول إلى درجة أنه بات مدمنًا عليه، ما جعله يفقد عمله فتحوّل إلى متشرّد حقيقي بحيث إنني لم أعد قادرة أن أعيش معه بأي شكل من الأشكال. شاهدته لآخر مرّة في مونبارناس*، عند عتبة حانة «دومينيك»، لا بدَّ أنك تعرف هذا الماخور الروسي؟ كان الوقت ليلًا، وكان الطقس ماطرًا، أما هو فكان في حذاء ممزق لا يكاد يغطي كاحليه، يخبط في برك الماء ويركض وينحني وهو يمدّ يدّه متسوِّلًا من المارّة، ويحاول أن يساعدهم بطريقة خرقاء، ولكنه كان يعرقل الناس أثناء خروجهم من سيارات الأجرة. وقفتُ لبرهة ورحت أنظر إليه، فاقتربتُ منه. عرفني فخاف واضطرب. -لا يمكنك أن تتصور كم كان إنسانًا رائعًا وكريم النفس! جنتلمان بكل ما للكلمة من معنى!- وقفَ مرتبكًا وراح يحدِّق بي: «هل هذه أنتِ، يا ماشا**؟». كان ضئيلًا ومحدودبًا، بملابس بالية وغير حليق الذقن، إلى درجة أنَّ لحيته غطّت وجهه بالكامل، وكان مبلّلًا ويرتجف من البرد. أعطيته كلَّ ما كان معي من نقود في محفظة نقودي، فالتقط يدي بيده النحيلة المبللة والباردة، وراح يقبّلها وهو ينتحب. ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ صرت أرسل له ثلاث مرات شهريًا حوالي مائة أو مائتي فرنك. لديَّ

* تشتهر منطقة «مونبارناس» الصاخبة بسلسلة المتاجر والمطاعم الصغيرة التاريخية التي كان يرتادها المؤلفون، مثل «همنغواي». يرقد جثمان «جان بول سارتر» في مقبرة «مونبارناس»، أمّا سراديب الموتى في باريس والتي كانت في السابق أنفاقًا لأعمال التنقيب، فتضمّ عظام الموتى. تشمل المتاحف متحف «بورديل» حيث يتم عرض مجموعة كبيرة من المنحوتات ومتحف الجنرال لوكليرك» حيث يتم عرض آثار من الحرب العالمية الثانية. المترجم

** صيغة التحبب والدلع من اسم مارينا. المترجم

في باريس ورشة لصناعة قبعات النساء، وأنا أكسب من عملي بشكل جيد. وقد جئتُ إلى هنا لكي أرتاح قليلًا ولكي أسبح في البحر. وسوف أعود إلى باريس بعد بضعة أيام. أن ألتقي به وأن أصفعه على وجهه وما شابه ذلك، هو مجرّد حلم غبي. هل تعرف متى أدركتُ ذلك بشكل صحيح؟ في هذه اللحظة، وبفضلك. رحت أروي لك قصّتي وفهمتُ...

- ومع ذلك، كيف نجح في الهرب؟

- آه، هنا يكمن لب الموضوع برمته، إذ إنه فعل ذلك بمنتهى النذالة. نزلنا في هذا الفندق بالتحديد، حيث وجدنا أنفسنا أنا وإياك جارين فيه -كان هذا بعد فندق Cap d'Antibes!- وفي إحدى الأمسيات ذهبنا، قبل حوالي عشرة أيام، لكي نشرب الشاي في الكازينو. بطبيعة الحال، كانت هناك موسيقى تُعزف، وكان يرقص عدد من الأزواج -كنت قد أصبحت لا أطيق أن أرى كلّ ذلك، لأنني رأيت بما فيه الكفاية!- ومع ذلك جلستُ ورحت ألتهم الآيس كريم الذي طلبه لي ولنفسه. كان يضحك طوال الوقت بطريقة غريبة، راح يقول لي: انظري، انظري كم أنّ عازفي الموسيقى أشبه بالقردة، وكيف أنهم يطبطبون بأقدامهم ويصعّرون وجوههم! ثم فتح علبة سجائره الفارغة، ونادى النادل طالبًا منه أن يأتيه بسجائر إنجليزية، فجلب له النادل السجائر، فقال له وهو شارد اللب: «ميرسي»، سوف أدفع لك ثمنها بعد الشاي، ثم راح يحدِّق في أظافره ويقول موجِّهًا كلامه لي: «كم أنها أيادٍ قذرة! سوف أذهب وأغسلها...».

نهض وذهب...

- ولم يعد بعد ذلك.

- نعم. أما أنا فجلستُ أنتظره وأنتظره. انتظرت عشر دقائق، عشرين دقيقة، نصف ساعة، ساعة... هل يمكنك أن تتخيّل ذلك؟

- أتصوَّر.

كنتُ أتصوَّر بمنتهى الوضوح أنهما يجلسان إلى طاولة الشاي، ينظران وبصمت، وقد راح كلٌّ منهما يفكِّر في نفسه بوضعه الحقير البائس. كانت السماء خلف زجاج النوافذ الكبيرة قد بدأت تميل إلى الغسق وراحت تتلألأ، والبحر ساكن تمامًا، وثمة أغصان معلّقة قاتمة لأشجار النخيل، وعازفو الموسيقى يخبطون بأقدامهم على الأرضية كما لو أنهم مومياء وليسوا أحياء، ينفخون في آلاتهم ويضربون على صفائحهم المعدنية. بينما راح الرجال وهم يخشخشون ويتأرجحون على إيقاع موسيقاهم، يلتصقون بمرافقاتهم من النساء كما لو أنهم يسحبونهن إلى هدف محدد وواضح منذ وقت طويل. يقترب النادل وفي ما يشبه الرداء بلون أخضر ويناوله علبة من سجائر «High-Life» وهو يرفع قبعته للتعبير عن الاحترام...

- وماذا بعد؟ استمريت بالجلوس...

- كنتُ أجلس وأشعر بأنه قُضي عليَّ. غادر عازفو الموسيقى

المسرح، وخلت الصالة من الناس، أطفؤوا مصابيح الكهرباء...

- وأصبحت النوافذ زرقاء اللون...

- نعم، وأنا ما زلت غير قادرة على النهوض من مكاني. ماذا يجب أن أفعل، وكيف يمكنني أن أنجو؟ لم يكن يوجد في محفظة نقودي سوى ستة فرنكات وبعض القروش!

- أما هو فقد ذهب بالفعل إلى التواليت، حيث قام بما يلزم هناك وهو يفكّر بحياته القائمة على النصب والاحتيال، ثم زرّر بنطلونه وسار على رؤوس أصابع قدميه في الممرات إلى باب الخروج الآخر، ليخرج منه إلى الشارع. اتّقي الله، وفكّري فيمن أُغرِمت! قررتِ أن تبحثي عنه لكي تنتقمي منه؟ وعلامَ؟ فأنتِ لستِ فتاة صغيرة، وكان يجب عليكِ أن تدركي مَن هو؟ وفي أي وضع وضعتِ نفسك؟ لماذا تابعتِ حياتك الفظيعة في كافة جوانبها وبكل ما للكلمة من معنى؟

بقيت صامتة، ثم هزّت كتفها قائلة:

- مَن أحببتُ؟ لا أعرف. كانت توجد لدي، كما يقال، حاجة للحب، الذي لم أعرفه بشكل حقيقي طيلة حياتي. أما بوصفه رجلًا فهو لم يمنحني شيئًا، ولم يكن قادرًا أن يمنحني شيئًا، لأنه كان قد فقَدَ قدراته الذكورية منذ زمن طويل. أمّا أنه كان يجب عليَّ أن أرى مَن هو؟ وأن أدرك الحالة التي وضعتُ نفسي فيها؟ بالتأكيد، كان ينبغي ذلك، ولكني لم أشأ أن أرى وأن أفكّر بذلك، لأنها كانت المرة الأولى في حياتي التي أعيش فيها مثل

هذه الحياة، ومثل هذا الاحتفال الآثم، بحيث إنني كنت غارقة في كامل الملذات النابعة منه، باختصار كنتُ أحيا تحت تأثير فكرة متسلطة. أمَّا لماذا كنت أتمنى أن أصادفه في مكان ما وأن أنتقم منه؟ إنها فكرة وسواسية، هوسية من جديد. وهل لم أكن أدرك أنني لن أستطيع أن ألحق به أي أذى، سوى أن أحصل على فضيحة حقيرة ومثيرة للشفقة؟ وأنت تقول: لماذا؟ وذلك لأنني بسببه تحديدًا سقطتُ إلى هاوية الرذيلة، ورحتُ أحيا هذه الحياة القائمة على الاحتيال، والهم، على ذلك العار الذي عشته في ذلك المساء في الكازينو، عندما فرَّ هاربًا من الحمام! عندما رحت أقول شيئًا كذبًا وأنا فاقدة لأعصابي في صندوق الكازينو، رحت أسعى للتملّص وأتوسل إليهم أن يأخذوا مني حقيبتي كرهن حتى يوم غد. وعندما رفضوا أن يأخذوا الحقيبة، ولكنهم سامحوني بكل ازدراء بثمن الشاي والآيس كريم والسجائر الإنجليزية، أرسلتُ برقية إلى باريس، واستلمتُ في اليوم الثالث ألف فرنك، ثم ذهبتُ إلى الكازينو، وهناك أخذوا مني النقود دون أن ينظروا إليَّ، حتى إنهم أعطوني فاتورة بذلك. إيه، يا عزيزي، أنا لستُ ميدوسا بأي شكل من الأشكال، وإنما أنا امرأة متواضعة وعادية وفوق ذلك مفرطة في حساسيتي، امرأة وحيدة وتعسة، ولكن أرجو أن تفهمني، حتى الدجاجة لديها قلب! وأنا فقط صرت مريضة طوال هذه الأيام من بعد تلك الأمسية اللعينة. لقد أرسلك الربُّ إليَّ، وها أنا ذا قد استعدتُ وعيي فجأة. اترك يدي، حان الوقت لأن أرتدي ملابسي لأن القطار سوف يغادر سان رافائيل قريبًا.

- ليغادر القطار، الله معه. قلتُ لها. من الأفضل أن تنظري إلى ما حولك، إلى هذه الصخور الحمراء وإلى هذا الخليج الصغير الأخضر، إلى أشجار الصنوبر الملتوية، واصغي إلى هذا الصرير السماوي. من الآن فصاعداً سوف نأتي إلى هنا معًا. أليس كذلك؟

- حقًّا؟

- وسوف نسافر إلى باريس معًا.

- حسنًا.

- وأما ماذا بعد ذلك؟ فمن غير الصعب على المرء أن يتكهن!

- نعم، نعم.

- هل يمكنني أن أقبِّل يدَك؟

- بلى، بلى يمكنك...

٣ يونيو ١٩٤٤

نيغرا

حدث ذلك في إحدى المناطق الجبلية النائية في جنوب إسبانيا. ففي ليلة من ليالي يونيو، كان القمر بدرًا، وكان يبدو في كبد السماء صغيرًا، ولكنَّ نوره الورديّ الشفيف، كما يحدث عادة في الليالي الدافئة بعد هطول قصير لمطر غزير ومألوف جدًّا في فترة تفتّح أزهار الزنبق، كان ينيرُ بشكل جيد المعابر بين الجبال غير العالية التي تغطيها أحراش جنوبية قصيرة، إلى درجةٍ كان يمكن فيها للعين المجّدة أن تميِّز هذه النباتات بكل وضوح على مدِّ النظر.

كان الوادي الضيِّق يمتد بين تلك الجبال متجهًا نحو الشمال. وكان ثمة سيل جبلي يهدر في ذلك الجانب الظليل لتلك التلال، عبر السكون العميق لذلك الليل الصحراوي. كانت الحَباحِب* واليراعات تطير وتطير من دون صوت، وهي تنطفئ وتتوهج بانتظام تارة بلون حجر الأماتِيست وتارة بلون الياقوت الأصفر.

* الحَباحِب أو القطرب: كائنات صغيرة طيارة تضيء ليلاً في أوقات الصيف. المترجم

كانت التلال المتقابلة بعيدةً عن الوادي، وكان ثمة درب قديم من الأحجار المرصوفة يمرُّ في تلك الأرض المنخفضة. ومن القِدم ذاته كانت تبدو تلك البلدة الرابضة على هذه الأرض المنخفضة، والتي دخلها في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل رجل مغربيٌّ طويل في طربوش مغربي، وهو يمتطي حصانًا كميتًا راح يعرج على رجله الأمامية اليمنى.

كانت البلدة تبدو مهجورة لا حياة فيها. بل لقد كانت كذلك بالفعل. اجتاز المغربيُّ في البداية شارعًا ظليلًا بين الجدران الحجرية للبيوت التي كانت تنفرج عن فتحات سوداء بدلاً من النوافذ، مع حدائق موحشة خلفها. ثم خرج إلى باحة مضيئة، حيث كانت تُوجَد بركة ماء مستطيلة الشكل مع خيمة وكنيسة وتمثال أزرق اللون للسيدة العذراء فوق الباب، كما كانت توجد هناك عدّة بيوت مسكونة. وفي الطرف الآخر من الباحة، عند بوابة الخروج تمامًا، كان يقوم نزْلٌ صغير. كانت النوافذ في الطابق السفلي منه مضاءةً، فإذا بالمغربي الوسنان يصحو ويشدُّ اللجام بسرعة، ما جعل الحصانَ الأعرجَ يضرب بقوَّةٍ على الأرضية الحجرية غير المستوية للباحة.

خرجتْ إلى بهوِ النزل، على وقع تلك الضربات، عجوزٌ نحيلةٌ ضئيلةُ الجسم، بحيث إنها كانت تبدو مثل متسولة. ثم خرجت في إثرها فتاة مستديرة الوجه في الخامسة عشرَ من العمر، مع غرّة على الجبين وفي سروال طويل، حافيةَ القدمين،

ترتدي ثوبًا بلون الوستارية* الكالحة. كما نهض كلبٌ ذو وبر ناعم كان يتمدد عند المدخل وقد انتصبت أذناه القصيرتان. سار المغربي بخطوات عجولة باتجاه المدخل، ما حدا بالكلب لأن يتقدّم بكامل جسمه إلى الأمام، كما برقتْ عيناه وكشّر على مضض عن أنياب بيض مرعبة. رفع المغربي السوط، ولكن الفتاة حذّرته:

- نيغرا! هتفت خائفة بصوت رنّان. ما بك؟

خفض الكلب رأسه وتنحّى جانبًا ببطء، ثم استلقى وأدار خطمه نحو جدار البيت.

ألقى المغربي التحية بلغة إسبانية ركيكة وراح يسأل، فيما إذا كان يوجد في المدينة حدّاد، فهو يريد أن يقوم غدًا بمعاينة حوافر الحصان، وأين يمكنه أن يضع الحصان أثناء الليل مع تقديم العلف له، وكذلك تأمين ما يمكن أن يتناوله هو نفسه على العشاء.

راحت الفتاة تنظر بفضول فائق إلى طوله الفارع، وإلى وجهه الصغير شديد السمرة وعليه آثار الإصابة بالجدري، ثم ألقت نظرةً قلقة على الكلب الأسود المستلقي بهدوء مشوب بالحنق. سارعت العجوز التي تعاني من ضعف في السمع، وأجابت بصوت مرتفع:

- بلى، يوجد حدّاد، وهو ينام في حظيرة الحيوانات بالقرب

* الوِستارية أو الحُلْوة: جنس من النباتات يتبع فصيلة البقوليات. المترجم

من البيت، لكنها ستوقظه على الفور وستقدم العلف للحصان. وأما بخصوص الطعام فليعلم الضيف أنه لا يمكننا، للأسف، سوى تقديم البيض المقلي بالدهن، وهناك كمية قليلة من البازلاء غير الطازجة وقليل من حساء الخضار، بقايا من العشاء.

بعد حوالي نصف ساعة، وبعد أن انتهى الحدّاد، ذلك العجوز الثمل كعادته من عمله، جلس المغربي إلى طاولة في المطبخ، وراح يأكل ويشرب بنهم نبيذًا أبيضَ مائلًا إلى الصُفرة.

كان مبنى النزل من الطراز القديم. فكان الطابق السفلي مقسومًا إلى نصفين بواسطة ممرات طويلة تنتهي إلى سلّم قديم يؤدي إلى الطابق الثاني: إلى اليسار كانت توجد غرفة واسعة بسقف واطئ مع أرضية خشبية للنوم مخصصة لعامة الناس، وإلى اليمين غرفة مماثلة واسعة مع مطبخ ذي سقف منخفض وملحقة به غرفة مخصصة للطعام، غطت سقفها وجدرانها طبقة سميكة من السخام، مع نوافذ صغيرة وعميقة جدًّا بسبب السُّمك الكبير للجدران . بالإضافة إلى موقدٍ في الزاوية البعيدة، وفيها موائد عارية خشنة مع سطح حجري خشن، وحول الموائد مقاعد يسهل الانزلاق عنها نظرًا لِقِدَمِها. كانت تضيء في الغرفة لمبة من الكيروسين تتدلى من السقف بواسطة سلسلة معدنية صدئة، وكانت تفوح في الغرفة رائحة تدفئة وشحم محترق.

أشعلت العجوز النار في الموقد، ثمَّ قامت بتسخين اليخنة

الباردة وحضّرت البيض المقلي للضيف، الذي كان في هذا الوقت يأكل الفول البارد المغمّس بالليمون وبزيت الزيتون الأخضر.

لم يخلع المغربي ثيابه ولم ينزع الطربوش، بل جلس مباعدًا قدميه اللتين كانتا في حذاء جلدي سميك، وقد حزم فوقه عند الكاحل بنطلونًا واسعًا من نفس ذلك الصوف الأبيض.

أما البنت التي راحت تساعد العجوز، وتقوم على خدمته، فكانت تخاف من نظراته السريعة المباغتة إليها، ومن عينيه ببياضهما المشوب بالزرقة، ما يجعلهما تبدوان واضحتين بشكل كبير على وجهه الجاف، الأرقش والقاتم مع شفتين ضيقتين. علمًا أنه كان يبعث الرعب لديها حتى من دون كلّ ذلك. ذلك لأنه كان يبدو بقامته الفارعة في الطربوش عريضًا جدًّا، ما جعل رأسه يبدو أصغر بكثير من حجمه الحقيقي، خصوصًا في الطربوش. وكانت ثمة شعيرات قاسية سوداء ومجعّدة على شفته العليا. كما كان يوجد مثلها في مكان ما من ذقنه.

كان رأسه ملقيًا للوراء قليلًا، ما جعل تفاحة آدم تبدو بارزة بشكل واضح تحت الجلد بلون زيتوني. كانت ثمة خواتم فضية فاتحة تظهر واضحة في أصابعه النحيلة السوداء. كان يأكل ويشرب بصمت طوال الوقت.

قدمت له العجوز البيض المقلي واليخنة، ثم جلست منهكةً

على مقعد بالقرب من الموقد وسألته بصوت عال، من أين هو وإلى أين ذاهب؟، فأجابها بصوت أجش وباختصار:

- إلى مكان بعيد.

بعد أن التهم الحساء والبيض، راح يلوح بالإبريق الفارغ. كان يوجد في اليخنة الكثير من الفلفل الأحمر. أومأت العجوز برأسها إلى البنت، وعندما التقطت هذه الإبريق وخرجت مسرعة من الباب المفتوح للمطبخ نحو الممرات المظلمة، حيث كانت تسبح الحباحب ببطء وهي تلمع بشكل ساحر، أخرج من جيبه علبة سجائر، أشعل واحدة وسأل باقتضاب:

- هل هذه حفيدة لك؟

- بنت أخي. راحت العجوز تقص عليه بصوت مرتفع جدًّا كيف أنها كانت تحب أخاها المتوفى، والدَ البنت، وأنها لم تتزوج بسببه. وأنَّ ملكية هذا النزل تعود له وأنه مضى اثنتا عشرة سنة على وفاة زوجته، وثماني سنوات على وفاته. وأنه أوصى بكل أملاكه لها، أي للعجوز، للاستثمار مدى الحياة، وأنَّ العمل صار أسوأ بكثير في هذه المدينة المهجورة تمامًا.

كان المغربي يصغي، وهو يدخِّن سيجارته شاردًا ويبيِّتُ لشيءٍ ما غامض. عادت الفتاة راكضة وهي تحمل إبريقًا ممتلئًا بالنبيذ، بينما راح هو ينظر إليها وقد عبَّ من سيجارته بعمق، إلى درجة أنه أحرق نهايات أصابعه المدببة والسوداء. ثم أشعل على عجل سيجارة جديدة، وقال بصوت واضح متوجهًا

بحديثه إلى العجوز دون أنْ يلحظ صممَها:

- سيسعدني جداً أنَ تقوم ابنة أخيك بصبِّ الخمر لي.

- هذا ليس شغلها. أجابت العجوز بحدة، ثم انتقلت بسهولة من الثرثرة إلى الاختصار الصارم، فراحت تصرخ بحنق:

- لقد تأخر الوقت، لذلك اشربِ النبيذَ واذهب إلى النوم؛ سوف تقوم البنت بتحضير السرير لَك في الغرفة العلوية.

لمعت عينا الفتاة بحيوية، ودون أن تنتظر الطلب قفزت خارجة وراحت تصعد السلّم راكضة.

- وأنتما أين تنامان؟ سأل المغربي ودفع الطربوش عن جبينه المتعرق إلى الوراء.

- في الطابق العلوي أيضًا؟

راحت العجوز تشرح بصوت عالٍ أنَّ الغرف العلوية خانقة جدًّا في فصل الصيف، وأنه حين لا يكون لديهم نزلاء -وقد صار هؤلاء نادرين جدًّا الآن في حقيقة الأمر!- فإنهما تنامان في النصف السفلي الآخر من البيت. ها هنا، في الجانب المقابل، وأشارت بيدها نحو الممر. ثمَّ راحت من جديد تكرِّر شكواها من قلّة الشغل، وكيف أنَّ كلَّ شيءٍ صار مكلفًا، ولذلك صاروا مضطرين لأن يطلبوا أجرًا مرتفعًا من النزلاء.

- سوف أغادر في الصباح الباكر. قال المغربي ذلك وهو

لا يصغي إليها على الأرجح. وفي الصباح سوف تقدمين لي القهوة فقط. لذلك يمكنك أن تحسبي منذ الآن المبلغ الذي يترتب عليَّ وأنا سأدفع لك الحساب على الفور. دعيني أرى فقط أين توجد النقود؟ وأخرج من تحت الطربوش كيسًا صغيرًا من الجلد الأحمر الطري، فقام بفكِّ عقدته وأرخى رباطًا كان يشد فتحة الكيس، ثم نثر على الطاولة كومة من النقود الذهبية وتظاهر بأنه يقوم بعدّها؛ أما العجوز فقد نهضت عن المقعد قرب الموقد وراحت تنظر إلى النقود بعينين مليئتين بالدهشة.

كانت الغرف العلوية مظلمة وخانقة. فتحت الفتاة باب الغرفة حيث كان يتسلل الضوء من خلال شقوق الدُرف المغلقة لنافذتين صغيرتَين كما في الأسفل، وبمهارة التفّت من خلف الطاولة المستديرة في وسط الغرفة، ففتحت النافذة ودفعت الدرف باتجاه الليلة المضاءة بضوء القمر الساطع، نحو السماء الشاسعة المتلألئة بنجوم متناثرة. صار التنفس أسهل وصار مسموعًا هدير الجدول في الوادي. مدّت الفتاة جسمها خارج النافذة لكي تنظر إلى القمر الذي لا يمكنها رؤيته من داخل الغرفة لأنه ما زال يقف عاليًا جدًّا، ثم نظرت إلى الأسفل: هناك في الأسفل كان يقف الكلب نيغرا وقد رفع خطمه نحو الأعلى وراح يتطلع إليها، كان نيغرا قد جاء راكضًا إلى النزل قبل حوالي خمس سنوات وهو جرو صغير بعد، ثمَّ راح يكبر أمام عينيها، فتعلّق بها بوفاء لا تقدر عليه سوى الكلاب.

- نيغرا -قالت الفتاة هامسة- لماذا لم تنم؟

عوى الكلب بصوت خافت رافعًا خطمه إلى الأعلى، وركض إلى الباب المفتوح في الممر.

- إلى الوراء، إلى الوراء! أمرته الفتاة بصوت خافت متعجّل.

- مكانك!

توقف الكلب ورفع خطمه من جديد، وقد تطايرت الشُّرُر من عينيه.

- ماذا تريد؟ سألته الفتاة بلطف، وقد اعتادت أن تتكلّم معه دومًا كما لو مع إنسان. لماذا لم تنمْ، أيها الغبي؟ هل القمر هو الذي يؤرقك؟

رفع الكلب خطمه مجددًا كما لو أنه يرغب في الإجابة، فعوى بهدوء. هزّت البنت كتفيها، فقد كان الكلب بالنسبة إليها الأقرب، بل الكائن الوحيد القريب لها في الدنيا الذي كانت مشاعره وأفكاره تبدو مفهومة لها بصورة دائمة تقريبًا. ولكنها لم تستطع أن تفهم ماذا كان يريد الكلب أن يقوله الآن؟ ما الذي يقلقه؟ ولذلك قامت بتهديده بإصبع يدها ومن جديد. أمرته هامسة بغضب مصطنع:

- مكانك. نيغرا. هيا نمْ!

استلقى الكلب، بينما ظلّت الفتاة واقفةً بعض الوقت قرب النافذة وهي تفكر به... ربما أقلقه هذا المغربي المخيف. فالكلب كان يستقبل النزلاء دائمًا بهدوء، ولم يكن يكترث

حتى بأولئك الذين كان مظهرهم يوحي كما لو أنهم قطّاع طرق وأصحاب سوابق. ولكن صادف أنه كان يهجم على البعض منهم كالمسعور، مع نباح كالرعد، وحينذاك لم يكن أحد سواها يستطيع تهدئته.

ولكن، لعلَّ سببًا آخر يقف وراء اضطراب الكلب وتوجسه! ربما بسبب الجو الخانق، مع غياب أي نسمة من الهواء، أو بسبب هذه الليلة الساطعة بضوء البدر الكامل. كان مسموعًا بوضوح كيف أنّ الجدول يضجُّ في الوادي في تلك الليلة الوادعة إلى حد غير عادي، وكيف أنَّ الفحلَ الذي يعيش في الحظيرة راح يمشي وهو يرفس بحوافره، وكيف أنَّ حيوانًا ما -إمّا البغل العجوز في الحظيرة وإمّا حصان المغربي- قد رفس الفحلَ بشدّة، بحيث إنه راح يثغو بقوة وبشكل مقيت، إلى درجة أنَّ الأمر بدا كما لو أنَّ ثغاءً شيطانيًا قد انطلق في كل أنحاء الدنيا. تراجعت البنيّة عن النافذة مع إحساس بالمرح، وقامت بفتح درف نافذة أخرى على اتساعها، ما جعل ظلمة الغرفة تنحسر أمام الضياء لتصبح الغرفة مضاءة أكثر. كان يوجد فيها، إضافة إلى الطاولة، ثلاثة أسرّة واسعة قرب الجدار الأيمن للمدخل، متوجهة برؤوسها نحو الجدار ومغطاة بملاءات خشنة فقط. مدّت البنيّة الملاءة على السرير الأول من جهة المدخل، سوّت الغطاء من ناحية الرأس الذي استضاء فجأة وبشكل سحري بضوء ناعم وشفاف مشوب بالزرقة. كان ثمة قُطْرب قد حطَّ على الشرشف، مررت يدها عليه وإذ بالقُطْرب يطير سابحًا عبر

الغرفة وهو يتلألأ تارة ويخبو تارة أخرى. راحت الفتاة تدندن أغنيةً بصوت ناعم ثم هرعت خارجةً من الغرفة.

في تلك اللحظة كان المغربي يقف في المطبخ بكامل قامته وقد أدار ظهره للعجوز، وراح يحدثها عن شيء ما بصوت خافت ولكن بإصرار وبنزق. راحت العجوز تهزُّ رأسَها علامة الرفض. هزَّ المغربي كتفيه واستدار نحو الفتاة الداخلة مع تعبير لئيمٍ على وجهه، ما جعلها ترتد مبتعدة.

- هل السرير جاهز؟ صاح بصوت أجش.

- كل شيء جاهز. أجابت الفتاة بسرعة.

- بيدَ أنّي لا أعرف الطريق. أرشديني.

- سوف أرشدك بنفسي -قالت العجوز بنبرة غاضبة- هيا، اتبعني.

التقطَ سمعُ الفتاة كيف راحت العجوز تخبط صاعدة السلّم، وكيف كان المغربي يخبط بحذائه خلفها، ثم خرجت إلى الشارع. انتفض الكلب الذي كان مستلقيًا عند المدخل فورًا، وراح يعوي وهو يرتجف من الفرح والرقة، ثمَّ بدأ يلحس البنت في وجهها.

- هيا اذهب مِن هنا، هيا ابتعدْ. همست البنيّة ثمَّ دفعته بلطف وجلست في المدخل.

أقعى الكلب أيضًا على قائمتيه الخلفيتين فاحتضنته الفتاة من رقبته، قبلته في جبينه وصارت تتمايل معه وهي تصغي إلى الخطوات الثقيلة وإلى صوت المغربي الأجش في الغرفة العلوية. صار يتحدّث مع العجوز بصوت خافت عن أمرٍ ما، إلّا أنه لم يكن ممكنًا تمييز الموضوع. وأخيرًا قال بصوت عال:

- حسنًا، حسنًا! دعيها تحضر الماء لي فقط لأجل الشرب ليلًا.

ثمَّ راحت تُسمع خطوات حذرة للعجوز وهي تهبط السلّم. دخلت الفتاة إلى الممر لملاقاتها وقالت بثقة:

- لقد سمعت ما قاله. لا، لن أذهب إليه. إنني أخاف منه.

- غباء، حماقة! صاحت العجوز. هل يعني أنك تعتقدين أنني سأذهب أنا بنفسي، وفي الظلام، ولأصعد ذلك السلّم الزلق؟ وليس من سبب لكي تخافي منه. إنه فقط غبي وأحمق، ولكنه طيب. لقد حدثني وحاول إقناعي أنه يشفق عليك، وأنك فتاة فقيرة، ولذلك لن يتزوجك أحد من دون مهر. وحقًا، أيّ مهر لديك؟ إذ إننا أفلسنا نهائيًا. فمَن ينزل عندنا الآن باستثناء الرجال الفقراء!

- لماذا كان غاضبًا جدًّا عندما دخلت أنا؟ سألت الفتاة. ارتبكت العجوز.

- لماذا، لماذا! قالت مغمغمة. لقد طلبت منه ألا يتدخل في

شؤون الغير... ولهذا امتعض... وأضافت بنبرة حانقة:

- هيا احضري الماء بسرعة وخذي الإبريق له. فقد وعدني أن يهديك شيئًا ما لقاء ذلك. هيا اذهبي، كما أقول لك!

عندما دخلت الفتاة، وهي تحمل الإبريق راكضة عبر الباب المفتوح إلى الغرفة العلوية، كان المغربي مستلقيًا على السرير بملابسه التحتية. كانت عيناه الشبيهتان بعيني طير تكتسبان في الشفق الساطع للقمر المضيء سوادًا شديدًا، وكان يبدو رأسه الصغير ذو الشعر القصير أسودَ اللون، كان يرتدي سروالاً أبيضَ طويلًا يكشف عن قدمين كبيرتين عاريتين. وكان يلمع على الطاولة وسط الغرفة مسدس كبير مع بكرة وله سبطانة طويلة، وكانت ثيابه مرمية على الكرسي بالقرب من السرير مشكّلة كومة بيضاء... كل ذلك كان يثير الاشمئزاز. وضعت الفتاة الإبريق على عجل وعادت أدراجها بسرعة، لكن المغربي قفز والتقطها من يدها.

- مهلًا، مهلا. قال بسرعة وهو يسحبها نحو السرير حيث جلس دون أن يفلت يدها وراح يتكلم هامسًا: اجلسي بقربي لدقيقة، اجلسي، اجلسي واسمعي... فقط اسمعي...

أحسّتِ الفتاة بالذهول فجلست خانعةً. راح يتحدث بسرعة مُقسمًا أنه أُغرِم بها إلى حدِّ الجنون وأنه سيعطيها مقابل قبلة واحدة عشر قطع من النقود الذهبية... عشرين قطعة... وأنَّ معه كيسًا كاملًا منها. ثم انتزع من تحت الوسادة كيسًا من

الجلد الأحمر، وبيدين مرتجفتين فتح الكيس ونثر ما فيه من ذهب على الفراش وهو يتمتم:

- انظري كم هي كثيرة لدي... هل ترين؟

هزت برأسها يائسة وقفزت عن السرير. لكنه التقطها على الفور من جديد، أغلق فمها بيده الجافة القوية ورماها على السرير. انتزعت يده بحركة قوية عن فمها وصرخت بصوت حاد:

- نيغرا!

قام من جديد بضغط فمها مع الأنف كاتمًا أنفاسها، وراح بيده الأخرى يحاول اصطياد ساقيها المتعريتين، إلّا أنها راحت ترفس برجليها وتضربه ضربات مؤلمة في البطن. ولكنه في هذه اللحظة بالذات التقط سمعُهُ زئيرَ الكلب الذي كان يصعد السلّم كالإعصار. انتفض واقفًا على قدميه والتقط المسدس عن الطاولة، لكن الوقت لم يسعفه لكي يضغط على الزناد، إذ قام الكلب برميه من قدميه على الأرض بسرعة البرق وبضربة واحدة. وعندما انقلب على بطنه ورفع ذقنه لكي يحمي وجهه من شدق الكلب الذي جثمَ فوقه وهو ينفث لهاثه الكلبي الحار في وجهه... وإذ بالكلب ينتزع حنجرته بحركة وحيدة قاتلة.

٢٣ مارس ١٩٢٣

باطل الأباطيل

هل يعرف كثيرون كيف مات فولتير، وأين تمَّ دفنه في بداية الأمر، وما هو المصير الذي آل إليه كلّ من قلبه ودماغه؟

لقد أخبرنا لينوترْ تفاصيل الحكاية بمهارته المعتادة، ومع نكهة من السخرية المرهفة التي لطالما كان يمتاز بها.

كان فولتير قد وصل إلى باريس قبل ثلاثة أشهر من وفاته، حيث نزل في فيلا السيد دو فيليت الواقعة عند زاوية شارع بون وضفة النهر.

ظلَّ السكون والهدوء يخيمان على تلك الفيلا على مدى ثلاثة أشهر. إلى أن حلّ ذلك المساء الرهيب الواقع في ٣٠ مايو من عام ١٧٧٨، حيث كان بإمكان المارّة الذين يعبرون من أمام بوابة الفيلا أن يلاحظوا، إذا ما ألقوا نظرةً إلى الفناء -الذي ظلَّ، بالمناسبة، على ما كان عليه تقريبًا في تلك السنوات حتى في أيامنا هذه- أنه ثمة حركة غير مألوفة تملأ أرجاء المنزل. بقيت النوافذ الثلاث في الطابق الأول مضاءة بقوة حتى وقت متأخر جدًّا من الليل، كما كانت تلوح خلف ستائر النوافذ

ظلال لأشخاص وهم يجرون هنا وهناك... فما الذي حدث؟

الذي حدث هو أنَّ ذلك «الملحد العظيم» أسلَمَ الروحَ لخالقها، وأنَّ أسرته، السيدة ديني وشقيقها، بالإضافة إلى القس الكاثوليكي مينيو، وأيضًا السيد دورموا والسيد دو فيليت، ومعهم أيضًا الطباخة والبواب كانوا جميعًا منهمكين بالجثة وبكسوتها. القصة هي أنَّ فولتير كان يعيش، بعد أن شهد جنازة أ. ليكوفرير، وقد سيطرت عليه حالةٌ من الذعر من أنَّ جثّته سوف تُرمى بعد وفاته مثل جيفة، وأنَّ أعداءه سوف يكونون على حق حين تنبّؤوا بحدوث فضيحة مدوية أثناء دفنه يمكن أن يثيرها المتعصبون دينيًا. لذلك كان ينبغي منع وقوع مثل هذه الفضيحة بأي ثمن.

لفظ فولتير أنفاسه الأخيرة في الساعة الحادية عشرة ليلًا. فانطلق الحاضرون عندئذ على الفور إلى الجراح تراي، وإلى السيد ميتوار، وهو صيدلي يسكن في الجوار. جاء هذا الشخصان وقاما بفحص سريع للجسد، ثم صادقا على شهادة الوفاة، ليقوما بعد ذلك بتحنيط الجثمان على عجل وكيفما كان، ثم قاما باستخراج القلب والدماغ والأحشاء منه. ألقوا الأحشاء في حفرة النفايات، أما الدماغ فقاموا بحشره في وعاء زجاجي مليء بالكحول الطبي، بينما وُضِع القلب ضمن علبة من الرصاص كانت موضوعة هي الأخرى داخل صندوق فضي مذهّب. بيدَ أنَّ الأمر لم ينتهِ عند ذلك. إنما كانت المسألة الرئيسية تكمن في كيفية إخراج الجثمان سرًّا من باريس، ومن

ثمَّ نقله بطريقة سرّية أيضًا إلى دير سيلبير الكاثوليكي الذي يقع على مسافة حوالي ١٣٠ كيلو مترًا عن العاصمة. كان القس مينيو، وهو ابن شقيق المتوفى، على علاقة طيبة وقريبة من ذلك الدير، وكان يأمل بالحصول على موافقة من رئيس الدير تسمح بإقامة صلاة الجنازة لفولتير ومن ثم دفنه هناك بالتحديد. ولكن كيف يمكن نقل الجثمان إلى هناك؟ كان نقله يحتاج إلى الدهاء، ومن دون أدنى شعور بالحرج من اللجوء إلى كافة الوسائل والأساليب، وبأقصى سرعة ممكنة.

وهكذا، بعد التشريح واستخراج القلب والدماغ والأحشاء، باشروا بكسو الجثة بسرعة. قاموا بلفّه بكفن تمَ تجهيزه على عجل من ملاءات السرير، ثم ألقوا رداءً على كتفيه وطاقية خاصة بأوقات الليل على رأسه، وحشروا قدميه في حذاء. بعد أن انتهوا من ذلك قاموا بسحب بقايا الجثمان المتأنق لذلك الشخص العظيم من البيت إلى فناء الفيلا، ثم وضعوها في عربة زرقاء اللون ومزخرفة بنجوم. ثم أمروا الخادم بالجلوس مقابل الجثة لكي يسندها ويمنعها من السقوط، كما طلبوا من الحوذي أن يلهب الجياد بالسوط لكي تعدو بأقصى سرعة ممكنة.

من المعروف أنه تمَّ تنفيذ جميع تلك الإجراءات على أكمل وجه. وعندما وصلوا إلى الدير في سيلبير كان الخادم نفسه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وذلك بعد تلك المعاناة التي عاشها في الطريق إلى سيلبير وهو جالس في عربة مظلمة

وجهًا لوجه مع شخص ميّتٍ راح يتأرجح طوال الوقت. تمَّ نقل الجثمان إلى الدير سليمًا وكاملًا وبسرعة فائقة، وبنفس السرعة تم القيام بالإجراءات اللازمة هناك. وعندما أصبح جثمان فولتير راقدًا تحت بلاطات الدير في سيلبير، لم تكن باريس قد علمت بوفاته بعد.

أما ما يتعلق بالدماغ والقلب فقد تعرضا لمغامرات كثيرة، أكثر سوءًا وأكثر تنوعًا.

فالدماغ -الذي كان يتميز بحجمه الكبير جدًّا- أصبح في حوزة الصيدلي ميتوار، وقد ظلَّ يستخدمه لمدة من الزمن في سبيل إشباع غروره. كان يقوم بعرض الدماغ على زواره وزبائنه، «لجميع الراغبين في تأمل هذه البقايا من السيد فولتير». ولكن، بما أنّه كان إنسانًا مثقفًا، فقد شعر بالقلق بشأن مصير هذه «التحفة العجيبة»، ولذلك قرر أن يقدمه هدية للدولة. عندئذ سخر القدر من فولتير بقسوة أكبر، ذلك أنَّ الدولة، ولدهشة الصيدلي الكبيرة وإحساسه بفظاعة لا يمكن تصديقها، ارتبكت لسبب ما، وراحت تعرب عن امتنانها له وهي تعبّر عن شكرها، ولكنها رفضت أن تأخذ الدماغ. وبعد مرور نصف قرن على ذلك، قام ابن الصيدلي، الطبيب ميتوار، بمحاولة شبيهة بتلك التي سبق وقام بها أبوه من أجل المحافظة على الدماغ الرائع للأجيال القادمة، وقدّمه من جديد هدية لفرنسا. لكن... فرنسا اعتذرت لسبب ما مرة أخرى عن قبول مثل هذا التكريم والشرف الرفيع. ثم قام المالك الثالث لدماغ فولتير، وهو السيد

فيرديه، بمحاولة لإقناع الأكاديمية بقبول الدماغ: لعلَّ هؤلاء «الخالدون» على الأقل يقبلون بأن يستلموا دماغ زميل سابق لهم. لكن الأكاديمية أيضًا رفضته: «لأنه لا يوجد لديها مكان جدير بمثل هذه الوديعة غير المتوقعة». وهكذا انطلق الدماغ في عملية ترحال طويلة. انتقل بالوراثة إلى حفيدة الصيدلي التي كانت تعيش حياة تنقّل دائم، ولذلك كانت تحمل معها أينما ذهبت ذلك الوعاء الزجاجي النفيس «الذي يحتوي في ذاته على تلك المعجزة التي أبدعت في وقت من الأوقات الكثير من الأفكار العبقرية». وبعد وفاة الحفيدة انتقل الوعاء الزجاجي بطريقة مبهمة إلى ملكية السيد لابروس الذي كان يعمل مساعد صيدلي، ثم اشتراه أحد الأشخاص عام ١٨٧٠ في مزاد علني من ضمن أشياء أخرى، ليختفي بعد ذلك في غياهب المجهول.

يقول لينوتر:

- لعلّ الدماغ مازال سليمًا حتى وقتنا هذا، وقد يكون الآن مرميًا في سقيفة ما، بين أشياء مهملة؟ ولكن أين بالضبط؟ لم يعطِ أحد جوابًا على هذا السؤال حتى الآن.

كما أنَّ قلب فولتير لم يكن أحسن مصيرًا، وهذا ما يثير القلق والأسى أيضًا.

كان لدى فولتير ابنة بالتبني «وقد كانت آية في الجمال وتجسيدًا للطيبة والبراءة»، وكانت متزوجة من الماركيز دو

فيليت، صاحب تلك الفيلا الواقعة في شارع بون، وكان دو فيليت هذا شاعرًا ونصيرًا متحمسًا للعجوز العظيم. وقد أخذ القلب لنفسه، وطلب بأن يُحفر على الصندوق، الذي يحتوي على القلب في داخله، بيتٌ من الشعر قام هو نفسه بنظمه خصيصًا لهذه الغاية:

روحه تحوم في كلِّ مكان،

أما قلبُه فَيرقد هنا بهدوء.

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد ذلك بقي الصندوق مع القلب في داخله موضوعًا لمدة طويلة في ضريح شيّده له فيليت في صالون الملجأ الشهير لفولتير، في ذلك القصر الشهير الذي يعرفه العالم بأسره، والذي كان دو فيليت قد اشتراه في يوم من الأيام. وهناك أقام على شرف معبوده ما يمكن وصفه بأنه شيء وسط، ما بين المتحف والمعبد الوثني، ثم نصّب نفسه كاهنًا أكبر لعبادة فولتير. بيدَ أنّ السنوات راحت تمضي، وبدأ حماس فيليت يتلاشى شيئًا فشيئًا، ثم قام في نهاية المطاف بتأجير القصر الشهير لأحد الأثرياء الإنجليز. وقد أمر المستأجر الإنجليزي، بطبيعة الحال، على الفور بهدم الضريح وإزالته من الصالون، وبأن ينقل الصندوق «الثمين» مع القلب في داخله إلى مكان ما.

كان القلب أفضل حظًّا من الدماغ، حيث ظلَّ الصندوق مع القلب سليمًا. علمًا أنه هو أيضًا، راح ينتقل من يدٍ إلى يد، ومن

ورثة إلى ورثة آخرين، وحتى إنه كان سببًا في مشاحنات كثيرة فيما بينهم وموضوعًا لدعاوى قضائية، لكنه مع ذلك بقي سليمًا، وتم تقديمه في وقت من الأوقات هدية للدولة، التي كانت هذه المرة أكثر مرونة وتساهلًا بكثير مما كانت عليه في السابق مع الدماغ. وهكذا يرقد قلب فولتير اليوم، كما هو معروف، في المكتبة القائمة في شارع ريشيليه، في تلك القاعدة التي يقف عليها نموذج من تماثيل هودون* من المرمر الشهير.

أجل، ليس عبثًا أن يضحك فولتير بطريقة لاذعة إلى اليوم. وهو يضحك، بالمناسبة، على نفسه بالطبع أيضًا.

١٩٢٧

* كان جان أنطوان هودون Jean-Antoine Houdon نحاتًا كلاسيكيًا فرنسيًا. اشتهر هودون بتماثيل نصفية وتماثيل للفلاسفة والمخترعين والشخصيات السياسية في عصر التنوير: مثل دينيس ديدرو وبنجامين فرانكلين وجان جاك روسو وفولتير وموليير وجورج واشنطن وتوماس جيفرسون ولويس السادس عشر وروبرت فولتون ونابليون بونابرت. المترجم

ناتالي

١

ارتديتُ في ذلك الصيف سِدارتي الطلابية لأوّل مرة، فشعرت بسعادة غامرة من ذلك النوع الخاص، التي تنشأ مع بداية مرحلة حرّة من حياة الشباب، وهذا ما يحدث في هذه الفترة فقط. نشأتُ في أسرة نبيلة صارمة، في القرية، وبقيتُ في فترة يفاعتي نقيًّا روحًا وجسدًا وأنا أحلم بالغرام بقوّة، لذلك كنتُ أحمّر خجلًا حين أسمع الأحاديث غير المتكلفة والماجنة لرفاقي في المدرسة، فكانوا يغضِّنون جباههم ويقولون لي: «من الأفضل لك أن تترهبن يا ميشيرسكي!».

ولكني في ذلك الصيف لم أعد أشعر بالخجل. وعندما ذهبت إلى القرية لقضاء أيام العطلة، قررت أنه حان الوقت لكي أنتهك طهارتي، مثلما يفعل الجميع، وأن أبحث عن علاقة غرامية خالية من الرومانسية. وبسبب قراري هذا ورغبتي بأن أتباهى بشريط سِدارتي الأزرق، رحت أسافر إلى مزارع مجاورة، وإلى بيوت الأقارب والمعارف، وذلك بحثًا عن مغامرات عاطفية. وهكذا وصلت إلى مزرعة خالي

تشيركاسوف، المتقاعد من سلاح الفرسان والأرمل منذ مدة طويلة، والد الابنة الوحيدة، سونيا...

وصلتُ في وقت متأخر، فاستقبلتني في البيت سونيا بمفردها. عندما نزلت قافزًا من العربة وركضتُ إلى داخل الردهة المظلمة، خرجتْ لملاقاتي وهي ترتدي رداءً للنوم من الفانيلا، وتحمل بيدها اليسرى شمعة مرفوعة عاليًا، فقدّمت لي خدَّها لكي أقبلها، وقالت وهي تهز رأسها على عادتها الماكرة ونبرتها الساخرة:

- آه، يا للشاب الذي يتأخر دائمًا وأبدًا!

فأجبتها قائلًا:

- ولكن هذه المرة لم أكن أنا المذنب في التأخير، بل إنَّ القطار هو الذي تأخّر وليس الشاب.

- هس! الجميع نيام. لقد نفد صبر الجميع ونحن ننتظرك ونتوقع وصولك طيلة المساء على أحرِّ من الجمر، وأخيرًا يئسوا منك تمامًا. ذهب بابا إلى النوم وهو غاضب بعد أن نعتك بالطيش، أما يفريم الذي انتظرك في محطة القطار حتى وصول القطار الصباحي، على الأرجح، فقال عنه أنه عجوز أحمق. كما ذهبت ناتالي وهي حانقة، وتفرّق الخدم أيضًا، بينما بقيتُ أنا وحدي صابرة ووفيّة لك... هيا، بدِّل ثيابك ولنذهب من أجل تناول العشاء.

أجبتها وأنا أمتّع نظري بعينيها الزرقاوين وبيدِها المرفوعة والعارية حتى الكتف، وقلت:

- شكرًا لك يا صديقتي. أشعر بسرور كبير، خصوصًا الآن لاقتناعي بوفائكِ لي. لقد أصبحتِ فاتنة تمامًا، ولديَّ نوايا جدية تجاهك. كم هي جميلة يدك، وهذا العنق، وكم هو مُغرٍ هذا الرداء الناعم الذي لا يوجد تحته، بكل تأكيد، أي شيء!

انفجرت ضاحكة وقالت:

- لا شيء تقريبًا. ولكنك أنتَ أيضًا تغيّرت وأصبحت رجلًا. لديك نظرة حية وشاربان ناعمان وسوداوان فاحشان... ولكن، ما الذي حصل لك؟ لقد تحوّلت خلال سنتين، لم أرك فيهما، من صبيّ يشتعل خجلًا إلى رجل وقح مثير للاهتمام. وهذا من شأنه أن يعِدنا بمتع غرامية كثيرة، كما كانت تقول جدّاتنا، لولا وجود ناتالي التي سوف تُغرَم بها في صباح يوم غد حتى الموت.

- ومَن هي ناتالي هذه؟ سألتها وأنا أدخل وراءها إلى غرفة الطعام المضاءة بقوّة بمصباح معلّق ساطع، ومع نوافذ مفتوحة على عَتمةِ ليلةٍ صيفية دافئة وهادئة.

- إنها ناتاشا ستانكيفيتش، صديقتي في المدرسة الداخلية، لقد حلّت ضيفةً عندي لبضعة أيام. إنها فاتنة بالفعل، بعكسي أنا. تخيّل... لديها رأس رائع مع شعر «بلون الذهب» كما يقال،

وعينين سوداوين. حتى إنهُ يمكن القول أنهما ليستا عينين، وإنما شمسانِ سوداوانِ، إذا ما استخدمنا التعبير الفارسي. وأمَّا الرموش فهي بالطبع طويلة وكبيرة جدًّا، بالإضافة إلى اللون الذهبي لبشرة الوجه والكتفين وكلّ شيء آخر.

– وماذا تقصدين «وكل شيء آخر»؟ سألتها وقد بدأتُ أشعر بالدهشة أكثر فأكثر من نبرة حديثنا

– سوف نذهب أنا وإياها غدًا صباحًا لكي نسبح. أنصحك بأن تختبئ بين الأجمة، وعندئذ يمكنك أن ترى ماذا أقصد. كما أنَّ جسمها متناسق مثل حورية شابة...

كان يوجد على الطاولة في غرفة الطعام شرائح لحم باردة، وقطعة من الجبن وقنينة من النبيذ الأحمر من جزيرة القرم. قالت وهي تجلس وتصب النبيذ لي ولنفسها:

– لا تغضب، ما مِن شيء آخر الآن. كما أنه لا توجد فودكا. هيا بنا، نرجو الربَّ، ونرفع نخبًا حتى ولو بالنبيذ.

– ماذا تطلبين من الرب بالتحديد؟

– أن أعثر بأقصى سرعة على عريس يقبل أن «يأتي» ليعيش عندنا في المنزل. لقد أصبح عمري إحدى وعشرين سنة، وأنا أرفض زواجًا في مكان بعيد: لِمَن سأترك بابا؟

– لتكن مشيئة الرب.

وهكذا شربنا النخب. وبعد أن شربت على مهل كأسها بالكامل راحت تنظر إليَّ بسخرية غريبة وأنا أستعمل الشوكة، وكما لو أنها كانت تقول في نفسها:

- لا بأس بك، إنك أشبه بشخص جورجي* وجميل بشكل كبير، بينما كنت في السابق نحيفًا وذا وجه أخضر اللون. على العموم، لقد تغيرت كثيرًا، فأصبحتَ رقيق الحاشية ولطيفًا. ولكن عينيك تراوغان كثيرًا...

- هذا لأنك تربكينني بجمالك. فأنتِ أيضًا لم تكوني على هذا النحو من قبل...

ثم رحتُ أتأملها بمرح. كانت تجلس في الجهة الأخرى من الطاولة، وقد تكوّمت على الكرسي طاوية ساقها تحتها، وواضعة إحدى ركبتيها بالكامل فوق الأخرى، منحرفة قليلًا نحوي، فكان سمارُ يدها المعتدل يلمع في ضوء المصباح. كما راحت عيناها الزرقاوان مع مسحة بنفسجية تشعان بالمرح. مع شعر كثيف وناعم بلون الكستناء الضارب إلى الحُمرة بعض الشيء، وقد ضفرته في جديلة كبيرة قبل النوم. كما كان طوق الرداء المنفتح يكشف عن رقبة سمراء مستديرة، وعن بداية صدر ممتلئ مع مثلث من السمار الشمسي أيضًا. كانت ثمة شامةٌ على خدّها الأيسر مع شعيرات سوداء مجعّدة.

* نسبةً إلى بلد جورجيا. المترجم

- وكيف هو بابا؟

أخرجت من جيب ردائها وهي تتابع نظرتها العابثة، علبة سجائر فضية وعلبة من أعواد الثقاب، أشعلت سيجارة بكياسة مبالغ فيها، وأصلحت من وضعية ساقها المثنية تحتها ثم قالت:

- بابا، والحمد لله، ممتاز. ما زال مستقيمًا وصارمًا، صلبًا يطرق بعكازه، يسرِّح شعره الأشيب، ويدهن فوديه وشاربيه بمادة ما بنيّة اللون، يتأمل المسيح بشجاعة، ولكنه

مازال يرتجف ويرفض ويهزُ برأسه، بإصرار، كما لو أنه لا يوافق على أي شيء على الإطلاق، ودائمًا. قالت وانفجرت في الضحك. هل تريد سيجارة؟

أشعلت سيجارة مع العلم أنه لم يسبق لي أن دخنّتُ قبل ذلك، ومن ثم ملأتْ نبيذًا لي ولنفسها، فألقت نظرة إلى الظلام عبر النافذة وقالت:

- مازال كلُّ شيء جيّدًا، والحمد لله. الصيف رائع، انظر ما أروع هذا الليل! بيد أن البلابل توقفت عن التغريد. أنا بالفعل سعيدة لأجلك. كنت قد أرسلت العربة من أجلك منذ الساعة السادسة، لأنني خشيتُ أن يتأخر يفريم، الذي بات خرفًا، على وصول القطار. انتظرتك على مضض أكثر من الجميع. ومن ثم شعرت بالسرور عندما تفرّق الجميع وأنك سوف تتأخر... وأننا في حال أتيت، سوف نجلس وحدنا. كنت أقدِّر دون أن

أعرف لماذا، أنك لا بد تغيّرت كثيرًا، وأنَّ هذا ما يجري دائمًا مع أمثالك. وأنت تعرف مدى المتعة حين تجلس بمفردك في البيت بأكمله وفي ليلة صيفية، بانتظار أحد ما سوف يأتي من محطة القطار، وأن يسمع المرء في نهاية المطاف أنَّ ثمة من هو قادم، ورنين أجراس، وإذ به يدلف إلى المدخل راكضًا.

تناولت يدَها عبر الطاولة وتركتها في يدي، فشعرتُ بانجذاب يشدّني إلى جسدها بالكامل. راحت تطلق من فمها حلقات من دخان سيجارتها وهي تبتسم بهدوء مرح. تركتُ يدَها وقلت كما لو كنت مازحًا:

– ها أنتِ تتحدثين عن ناتالي... ولكن لا يمكن مقارنة أي ناتالي معك... بالمناسبة، مَن هي ومن أين؟

– من مدينة فورونيج، من أسرة رائعة كانت ثرية جدًّا ذات يوم، ولكنها الآن فقيرة إلى أبعد حدٍّ. يتحدثون في البيت عندهم باللغة الإنجليزية والفرنسية، ولكن لا يوجد لديهم شيء لكي يأكلوه. فتاة في غاية الرقة واللطف، رشيقة القوام وهشّة فوق ذلك. ذكية، ولكنها انطوائية، بحيث إنك لا تستطيع أن تفهم على الفور ما إذا كانت ذكية أم غبية. وأسرة ستانكيفيتش هذه تقطن في مكان قريب من ابن عمك العزيز عليك الكسي ميشيرسكي، وقد أخبرتني ناتالي أنه مؤخرًا أصبح يتردد على زيارتهم كثيرًا ويشكو حياة العزوبية. لكنه لا يروق لها. ثمَّ إنه ثري، ويمكن أن يظن الناس أنها تزوجته طمعًا بماله، وأنها

ضحّت بنفسها في سبيل والديها.

- هكذا إذن... دعينا نعود إلى موضوعنا. ناتالي، ناتالي، حسنًا، ولكن ماذا بشأن علاقتنا الغرامية أنا وإياك؟

- لن تعيق ناتالي مغامرتنا الرومانسية بجميع الأحوال. سوف تفقد عقلك من غرامك بها، ولكنك سوف تقبّلني أنا. سوف تنتحب على صدري من فرط قسوتها عليك، وسوف أقوم بمواساتك.

- لكنك تعرفين أنني مغرم بك منذ زمن طويل.

- نعم، ولكن ذلك كان مجرّد تعلّق وغرام عادي بابن عمّة، كما أن ذلك الحبُّ كان مخفيًا وماكرًا، إذ إنك كنت في ذلك الوقت سخيفًا وتبعث على الملل. ولكن سوف أغفر لك غباوتك الماضية، ومستعدة لأن أبدأ معك علاقة عاطفية منذ يوم غد، بالرغم من وجود ناتالي. أما الآن هيا بنا نذهب إلى النوم، لأنني مضطرة إلى النهوض في وقت مبكر للقيام بأعمال في المنزل.

نهضت وقامت بلفِّ ردائها، ثم تناولت من المدخل شمعة كادت تشتعل حتى النهاية وقادتني إلى غرفة نومي. وعند عتبة الغرفة رحتُ أقبّلها مطوّلًا وبنهم وأضغطها إلى قائمة الباب، أما هي فكانت تغمض عينيها بطريقة عابسة وتخفض الشمعة التي كانت تنقط أدنى فأدنى، وأنا أشعر بالبهجة وبالدهشة،

مثلما كنت أشعر في أعماق روحي طوال العشاء بهذا الحظ السعيد والنجاح في تحقيق أحلامي الغرامية، الذي حالفني فجأة في بيت آل تشيركاسوف. وبينما كانت تغادرني بوجه قرمزي اللون، رفعت إصبعها مهدِّدة وقالت بصوت خافت:

- ولكن إياك أن تفكر «بالتهامي» بعينيك في يوم غد وعلى مرأى من الجميع! لا قدّر الله، قد يلاحظ بابا شيئًا ما، فهو يخاف مني كثيرًا، وأنا بدوري أخاف منه بدرجة أكبر. كما أنني لا أريد أن تلاحظ ناتالي أي شيء. فأنا بالنسبة لها خجولة جدًّا. ولا تحكم عليَّ، من فضلك، من خلال سلوكي معك. وفي حال أنك لم تنفّذ طلبي هذا، فإنك سوف تصبح مقرفًا بالنسبة لي على الفور.

خلعتُ ثيابي وسقطتُ على السرير مع شعور بالإعياء، ولكني غفوت في الحال ونمت نومًا هانئًا من فرط السعادة والتعب، دون أن أرتاب على الإطلاق بأنَّ تعاسة عظيمة تنتظرني في المستقبل، وأنَّ مزاح سونيا سوف يكون بعيدًا عن المزاح نهائيًا. فيما بعد رحت أتذكّر مرارًا وتكرارًا كما لو أنَّه فأل شؤم ما حدث لحظة دخولي إلى الغرفة المخصصة لي للنوم، وحين أشعلتُ عود ثقاب لكي أشعل الشمعة، كيف إنَّ خفاشًا كبيرًا اندفع نحوي بطريق خاطفة. اندفع نحو وجهي إلى درجة قريبة جدًّا، بحيث إنني رأيتُ في ضوء عود الثقاب شكله المخملي القاتم والكريه وخطمه مع أذنين كبيرتين، وأنفه

الضخم والمتوحش الأشبه بالموت، وكيف أنه طار مع رفرفة ناعمة وهو يتلوى إلى الظلمة عبر النافذة المفتوحة. ولكني حينئذ نسيت شأنه على الفور.

II

رأيتُ ناتالي لأول مرّة في صباح اليوم التالي، ولكن عرضًا. لاحت فجأة وهي تدلف من المدخل إلى غرفة الطعام. ألقت نظرة خاطفة -لم تكن قد سرّحت شعرها بعد، وكانت ما زالت في قميص نوم خفيف من قماش ما برتقالي اللون- ثم اختفت بعد أن برقت بهذا البرتقالي، وبشعرها الذهبي المشرق وبعينيها السوداوين. كنت في هذه اللحظة وحدي في غرفة الطعام، وكنت قد انتهيت للتو من تناول القهوة -كان الفارس قد أنهى قهوته قبلي وخرج. وعندما نهضتُ من خلف الطاولة التفتُ صدفةً ولمحتها. كنتُ قد استيقظتُ في ذلك الصباح في وقت باكر جدًّا، حين كان البيت بأكمله ما زال غارقًا في الصمت والسكينة. كان ثمة عدد كبير من الغرف في المنزل، بحيث إنني كنت أضيع بينها في بعض الأحيان. استيقظتُ في غرفة كانت في جهة بعيدة من المنزل، تطل بنوافذها على الجزء الظليل من الحديقة. ولما كنت قد نمت بشكل جيد،

فقد رحتُ أغتسل بمتعة، وارتديتُ ثيابًا نظيفة بالكامل. وأكثر ما شعرت بالفرح عندما ارتديتُ قميصي الجديد مع ياقة مائلة* ومن الحرير الأحمر. سرّحت شعري الأسود المبلل والذي كنت قد قصصته يومَ أمس في فورونيج، بشكل رائع، ثم خرجتُ إلى الممر، وانعطفتُ إلى ممر آخر فوجدتُ نفسي أمام مكتب وغرفة نوم الفارس في نفس الوقت. ولما كنتُ أعرف أنه يستيقظ في الخامسة صباحًا، فقد طرقتُ الباب. لم يردّ أحد، ففتحتُ الباب وألقيتُ نظرة، فتيقنتُ بسرور من أنه لم يتغيّر شيء على الإطلاق في هذه الغرفة القديمة والواسعة ذات النافذة الإيطالية البديعة بدرفها الثلاث، والتي تقع تحت شجرة حور فضيّة اللون يزيد عمرها عن مائة سنة. كان الحائط الأيسر في الغرفة مليئًا برفوف الكتب من خشب السنديان، وقد علّقت في أحد الأمكنة بينها ساعة حائط من خشب الماهوجني الأحمر ولها قرص نحاسي مع بندول ثابت، ويوجد في مكان آخر بينها عدد كبير من الغلايين ذات الأنابيب المطرزة بالخرز، وقد عُلِّق فوقها مقياس للضغط الجوي. وفي مكان ثالث حُشِر مكتب من زمن الأجداد، مع لوح من خشب الجوز تغطيه قطعة قماش صدئة من الكتان الأخضر، وعلى القماش توجد كماشة ومطارق صغيرة ومسامير ومنظار نحاسي. وأما الحائط قرب الباب فكانت معلّقة عليه، فوق أريكة خشبية ثقيلة تزن مائة بود، مجموعة كاملة من الصور الباهتة في إطارات بيضاوية الشكل. وقرب النافذة يوجد طاولة للكتابة وكرسي عميق، وكلاهما من

* يقال له أحيانًا «ثوب تولستوي أو جيفاغو». المترجم

قياس كبير جدًّا. وإلى اليمين قليلًا، فوق سرير عريض جدًّا من خشب السنديان، توجد لوحة جدارية تغطي الحائط بأكمله، مع خلفية مطلية بالورنيش وقد أصبح لونها أسودَ بعض الشيء، حيث يمكن بصعوبة رؤية كتل من السحب الرمادية الدخانية وأشجارٍ خضراء وزرقاء شاعرية، بينما ترقص في مقدمة اللوحة امرأة عارية فائقة الجمال، كما لو أنها صفار بيض متحجر تمامًا، تكاد تكون قريبة من الحجم الطبيعي، وقد وقفت وهي تدير نحو المشاهد في نصف استدارة وجهها الطافح بالكبرياء والبروزات على كامل ظهرها، وردفيها المكتنزين مع السطح الخلفي لساقيها القويتين. كانت تغطّي حلمة ثديها بطريقة مغرية بواسطة أصابع إحدى يديها الطويلة والمتباعدة، وباليد الأخرى تغطّي أسفل بطنها حيث الثنايا المدهنة. وما أن نظرتُ إلى كلّ ذلك حتى سمعت من ورائي صوت الفارس الجهور وهو يحمل عكازه ويتقدّم نحوي آتيًا من ردهة المدخل:

– لا يا عزيزي، لن تجدني في مثل هذا الوقت في السرير. بل هذا أنتم، أيها الشباب، مَن يبقى راقدًا في الفراش حتى «مطلع ثلاث أشجار بلوط».

قبّلت يدَه العريضة والجافة وسألتُه:

– أي أشجار بلوط تقصد يا خالي؟

– هكذا يقول الفلاحون. أجاب وهو يهزّ رأسه الأشيب

ويحدِّق فيَّ بعينين صفراوين مازالتا ثاقبتين وذكيتين. لقد ارتفعت الشمس أعلى من ارتفاع ثلاث أشجار بلوط بينما أنت ماتزال نائمًا، هذا ما يقوله الفلاحون عادة. ولكن، هيا بنا نذهب لنشرب القهوة.

«كهل رائع، وبيت رائع». قلتُ في نفسي وأنا أدخل خلفه إلى غرفة الطعام، التي كانت تطل عبر نوافذها المفتوحة على الحديقة الصباحية الخضراء، وكل ذلك البهاء والرفاهية الصيفية في مزرعة ريفية. كانت تقوم على خدمة البيت خادمة طاعنة في السن، ضئيلة الجسم ومحدبة، راح الفارس يشرب الشاي المركّز مع الكريمة في كأس من الزجاج السميك في حامل فضي خاص بالأكواب، وهو يمسك بإبهامه الساق الطويلة والنحيلة لملعقة ذهبية صغيرة مستديرة وعتيقة. أما أنا فرحتُ آكل خبزًا أسود قطعة تلو قطعة مع زبدة، وأسكب في كأسي من حين إلى آخر قهوة ساخنة من الإبريق الفضي الخاص. كان الفارس مشغولًا بنفسه ولذلك لم يطرح عليَّ أي سؤال، بل راح يحدثني عن جيرانه من ملّاك الأراضي وهو يشتمهم بأقذع الكلمات ويسخر منهم، بينما رحتُ أنا أتظاهر بأنني أصغي إليه وأنظر إلى شاربيه وإلى فوديه، فضلًا عن شعرات كبيرة على مقدمة أنفه. في حين أنني في حقيقة الأمر كنت أنتظر مجيء ناتالي وسونيا، وهذا ما جعلني لا أستقر في مكاني. كيف هي هذه الناتالي؟ وكيف سيكون لقائي مع سونيا بعد الذي حدث يوم أمس؟ كنت أشعر بالإعجاب بها وبالامتنان لها، وفي

الوقت نفسه رحت أفكّر بطريقة فاسقة بغرفة نومها ونوم ناتالي، وبكلِّ تلك الفوضى التي يمكن أن تكون قائمة في غرف نوم النساء في الفترة الصباحية... لعلّ سونيا أخبرت ناتالي شيئًا ما عن الغرام الذي بدأ بيننا يوم أمس؟ في حال حدث مثل ذلك، فإن هذا يجعلني أشعر بنوع من الحب تجاه ناتالي أيضًا، وليس لأنها حسناء كما يشاع، وإنما لأنها أصبحت شريكة في السرِّ معي أنا وسونيا. ولِمَ لا يجوز أن أعشقهما كلتيهما؟ ها هما سوف تدخلان الآن معًا بكامل نضارة الصباح، وسوف ترياني وستريان جمالي الجورجي وقميصي الأحمر الجديد، وسوف تتهامسان وتنفجران في الضحك، ثم تجلسان إلى المائدة وهما تصبّان بطريقة جميلة من إبريق القهوة الساخن هذا. شهية الشباب في أوقات الصباح، والإثارة الصباحية الفتية، بريق العيون المشبعة بالنوم، طبقة خفيفة جدًّا من البودرة على الخدود وقد بدت أكثر نضارة بعد النوم، وذلك الضحك لأي كلمة تقال، ضحك غير طبيعي وغير عفوي وهذا ما يجعله أكثر سحرًا وفتنة... كما أنهما ستذهبان قبيل الفطور عبر حديقة المنزل إلى النهر، حيث ستخلعان ملابسهما لتبقى كلٌّ منهما في ثوب السباحة فقط، حيث ستنير جسديهما العاريين زرقة السماء من فوق، وانعكاس المياه الشفافة من تحت. لطالما كان خيالي حيًّا إلى درجة كبيرة، لذلك رحتُ أتصوَّر كيف أنَّ سونيا وناتالي ستمسكان، وهما في ثوب السباحة، بدرابزين السلم الذي يؤدي إلى بركة الماء، وتنزلان بطريقة خرقاء على درجاته المبللة والباردة والزلقة بسبب المادة المخاطية

المخملية الخضراء والمقرفة التي تشكلت عليها. وكيف أنَّ سونيا، وقد رفعت إلى الخلف رأسها ذا الشعر الكثيف، سوف تهوي فجأة على الماء بنهديها المرفوعين وبطريقة حاسمة وشجاعة، وكيف أنّها باتت مرئية في الماء بجسدها سماوي اللون والمشوب بلون طباشيري، ثم راحت تحرّك رجليها ويديها في اتجاهات مختلفة كما يفعل الضفدع تمامًا.

– هكذا إذن، إلى اللقاء على الغداء، وتذكر: الغداء في الساعة الثانية عشرة. قال الفارس وهو ينفض رأسه سلبًا، ونهض مع ذقنه الحليقة وشاربيه البنيين والمتصلين مع فودين من نفس اللون، فبدا طويل القامة ومتينًا بطريقة كهولية، في بدلة واسعة من حرير التوسة السميك ويلبس حذاء له مقدمة عريضة، مع عكاز في يده اليمنى العريضة، والتي تغطيها بقع بنيّة بلون الحنطة السمراء. ربَّت على كتفي ومن ثم خرج بخطوة سريعة.

في هذه اللحظة، عندما نهضت أنا أيضًا لكي أخرج من خلال الغرفة المجاورة إلى الشرفة، عبرتْ بسرعة، لاحت، ثم اختفت على الفور، فأصابتني على الفور بإعجاب بهيج ومشرق. خرجتُ إلى الشرفة مذهولًا: إنها فاتنة بالفعل! وقفتُ هناك لبرهة طويلة، كما لو أنني أستجمع أفكاري. لقد انتظرتهما في غرفة الطعام بصبر نافدٍ، ولكنني عندما سمعت صوتهما في غرفة الطعام وأنا واقف على الشرفة، هربتُ على الفور إلى الحديقة. انتابني خوفٌ ما، إمَّا من كلتيهما، وقد كان لديّ سرٌّ آسر مع واحدة منهما، أو ربما من ناتالي بدرجة أكبر، ومن ذلكَ

الإبهار الخاطف الذي أصابتني به بسرعة البرق. رحت أتنزّه في حديقة المنزل التي كانت، كما هو حال المزرعة بأكملها، تقوم في وهدة نهرية، وأخيرًا تغلّبت على نفسي ودخلت بمشية عادية متعمدة ومصطنعة، فاصطدمتُ بشجاعة مرحة عند سونيا، وبمرح ظريف لدى ناتالي التي نظرت إليَّ مع ابتسامة بعينين تتلألأن بالسواد من تحت رموشها السود، ذلك السواد المذهل بشكل خاص على خلفية لون شعرها وقالت:

- سبق ورأينا بعضنا!

خرجنا بعد ذلك إلى الشرفة حيث وقفنا لبعض الوقت ونحن نتّكئ على الدرابزين الحجري، ونشعر بمتعة صيفية كيف أنَّ الشمس تحرق لنا رؤوسنا المكشوفة. كانت ناتالي تقف إلى جانبي، بينما كانت سونيا تحتضنها وكما لو أنها تنظر ساهية إلى البعيد، وقد راحت تدندن مع ابتسامة لحنًا: «وسط حفل الباليه الصاخب، عن طريق الصدفة...»، ثم استقامت وقالت:

- هيا لنسبح! سوف نذهب نحن في البداية، ومن ثمّ ستذهب أنت...

ركضت ناتالي من أجل المناشف، أما هي فتأخرت قليلًا وهمست لي قائلة:

- من فضلك، تظاهر منذ هذا اليوم بأنك مغرم بناتالي. واحذر

في حال اتضح أنه لا توجد حاجة لأن تتظاهر. كدتُ أجيبها بوقاحة مرحة أنه بلى، لم تعد ثمة حاجة لأن أتظاهر بذلك، ولكنها أضافت بصوت خافت وهي تراقب الباب:

- سوف آتي إليك بعد الغداء...

ذهبتُ بعد عودتهما إلى بركة السباحة، أولّا عبر ممشى طويل من أشجار البتولا، ومن ثم وسط مختلف أنواع الأشجار القديمة على ضفة النهر، حيث كانت تفوح رائحة دافئة من مياه النهر، والغربان تنعق من فوق قمم الأشجار. كنت أسير وأنا أفكّر من جديد مع مشاعر متناقضة تمامًا بشأن كل من ناتالي وسونيا، وأنني سوف أسبح في نفس تلك المياه التي كانتا تسبحان فيها للتو. بعد الغداء الذي تمّ وسط كلِّ ما هو سعيد وعبثي، وكلِّ ما هو رغيد وهادئ يصدر عن الحديقة عبر النوافذ المفتوحة -من سماء وخضرة وشمس- بعد غداء طويل مع تناول حساء الأكروشكا* والدجاج المشوي، بالإضافة إلى توت العلّيق مع الكريمة، بحيث إنني أصبحت بعده جامدًا في سرّي من جراء حضور ناتالي، وبسبب انتظاري تلك اللحظة التي يخيِّم فيها صمت كامل على المنزل في فترة ما بعد الظهيرة، حيث ستأتي سونيا -التي خرجت لتناول طعام الغداء وهي تضع وردة حمراء داكنة بلون المخمل في شعرها- خفية إليَّ لكي نتابع ما بدأناه يوم أمس، ولكن هذه المرة من دون عجلة وليس اعتباطيًا.

* حساء بارد مكوّن من خضار ولحوم، يعتبر طبقًا روسيًا بامتياز. المترجم

لذلك ذهبت على الفور إلى غرفتي وأغلقتُ درف النافذة، وجلستُ أنتظرها وأنا مستلق على الأريكة التركية، وأصيخ السمع في هدأة الصمت الحار إلى المزرعة، وذلك الغناء الواهن للعصافير في فترة ما بعد الظهيرة في الحديقة التي كانت تهب منها نسائم لطيفة لروائح الأزهار والأعشاب، وقد رحتُ أفكّر يائسًا: كيف لي أن أعيش الآن في هذه الازدواجية، في لقاءات غرامية سريّة مع سونيا، وإلى جانبي ناتالي التي يغمرني مجرّد التفكير فيها بفرح الحب النقي الطاهر، وبحلم شغوف أن أنظر إليها مع وله مفعم بالعشق البهيج، الذي رحتُ أنظر معه قبل بعض الوقت إلى قوامها الرشيق المنحني، وإلى المرفقين الناعمين للبنيّة اللذين كانت تتكئ وهي شبه واقفة بوساطتهما على الحجر القديم للدرابزين الذي سخّنته الشمس؟ كانت سونيا واقفة إلى جانبها وتحتضنها، وكانت ترتدي فستانًا من الباتيست* مع كشكش، ما جعلها تبدو أشبه بامرأة شابة تزوّجت منذ مدة قصيرة جدًّا. في حين أنَّ ناتالي كانت ترتدي تنورة من الكتان وقميصًا روسيًا مطرزًا، بحيث إنهُ كان يمكن تخمين كمال قوامها من تحته، ما جعلها تبدو مثل صبيّة مراهقة. وفي هذا بالضبط كانت تكمن السعادة المطلقة، في أنني لن أسمح لنفسي بأن أفكّر، حتى في حلمي، بأن أحاول تقبيلها مع نفس تلك الأحاسيس التي رحت أقبّل معها سونيا مساء أمس. كانت تظهر من كمّ قميصها الناعم والواسع والموشّى بخيوط حمراء

* Batiste: قطعة قماش ناعمة مصنوعة من القطن أو الصوف أو البوليستر أو المزيج، وألطف الأقمشة المعتمة خفيفة الوزن. المترجم

وزرقاء، يدها النحيلة الناعمة التي استقرت على بشرتها الجافة المذهّبة شعيرات شقراء زغبية. رحتُ أتأملها وأقول في نفسي: ماذا كنت سأشعر في حال أنني تجرأتُ بأن ألثم تلك الشعيرات بشفتي؟ وإذ أحسّت بنظرتي، رفعت إليَّ عينيها المشعتين بسواد متلألئ وكامل رأسها المشرق والملفوف بجديلة ثخينة جدًّا. ابتعدتُ عنها قليلًا وخفضت من نظري بسرعة، فرأيت ساقيها من خلال طرف التنورة التي شفّتها أشعة الشمس، وكاحليها الدقيقين والقويين في جورب رمادي شفاف...

فتحت سونيا مع وردة في شعرها، الباب وأغلقته بسرعة، وهتفت: «يبدو أنك كنتَ تنام بعمق!». قفزت وقلتُ لها: «ماذا تقولين؟ ما هذا الذي تقولينه؟ وهل بإمكاني أن أنام!». وأمسكتُ بها من يدِها لأقفلَ الباب بالمفتاح. هرعتُ إلى الباب، أما هي فجلست على الأريكة وأغمضت عينيها وقالت: «هيا، تعال إليَّ». ومن ثم فقدنا كل حياء أو وعي. لم ننطق بحرف واحد خلال تلك الدقائق، وقد سمحت لي بكامل روعة جسدها الملتهب، أن أقبلها في كلِّ مكان -أن أقبلها وحسب- بينما كانت هي تغمض عينيها بوجوم أكبر وأكبر، ووجهها يشتعل أكثر فأكثر. ومن جديد وعندما كانت تغادر وهي ترتِّب شعرها، هدّدتني هامسةً:

- وأما بخصوص ناتالي فإنّي أكرِّر: إياك أن تتجاوز حدود التصنّع والتظاهر. لديَّ طبع غير لطيف البتة مثلما قد يبدو لك!

كانت الوردة ملقاة على الأرضية. التقطتها وخبّأتُها في درج الطاولة، وبحلول المساء ذبلت بتلاتها المخملية الحمراء الداكنة، وأصبح لونها أرجوانيًا.

III

سارت حياتي من الناحية الظاهرية بطريقة عادية، ولكنني في الداخل لم أعرف لحظة واحدة من السكينة والهدوء. رحتُ أتعلّق بسونيا أكثر فأكثر، وبالعادة اللطيفة للقاءات مرهقة ومفعمة بالشغف معها في أوقات الليل. أمست تزورني في أوقات متأخرة من الليل فقط، عندما يكون جميع من في البيت نيامًا، وفي الوقت نفسه رحتُ أراقب خفيةً جميع حركات ناتالي بشكل مؤلم أكثر، وبإعجاب أكبر. راح كل شيءٍ يسير وفق الترتيب الصيفي المألوف: لقاءات في الصباح، وسباحة قبل الغداء، ومن ثم فترة راحة بعد الظهر كلٌّ في غرفته، بعد ذلك التنزه في الحديقة. كانتا تطرزان شيئًا ما وهما جالستان في ممر من أشجار البتولا وترغمانني على قراءة شيء ما لغونتشاروف* بصوت مرتفع، أو كانوا يطبخون المربى في مرج ظليل تحت

* إيفان ألكسندروفيتش غونتشاروف ١٨١٢ - ١٨٩١ م: روائي وكاتب روسي عاش في القرن التاسع عشر. اشتهر بسبب رواياته الثلاث «قصة عادية»، «حلم أوبلاموف»، «الهاوية». المترجم

أشجار البلوط، على مقربة من المنزل وإلى اليمين من الشرفة، وفي الساعة الخامسة عصرًا كنا نشرب الشاي في مرج ظليل آخر. في الجهة اليسرى، وفي المساء، كنا نقوم بالتنزه أو نلعب الكروكيت في باحة واسعة أمام المنزل -كنت ألعب أنا وناتالي ضد سونيا، أو سونيا مع ناتالي ضدي- ثم نتناول العشاء عند المغيب في غرفة الطعام... ليذهب الفارس بعدها إلى النوم. أما نحن فنجلس مطوّلًا في الظلمة على الشرفة، نمزح أنا وسونيا وندّخن، بينما تبقى ناتالي صامتة. أخيرًا قالت سونيا: «حان وقت النوم!». فكنتُ أودّعهما وأذهب إلى غرفتي، حيث أجلس منتظرًا بيدين باردتين جدًّا، تلك الساعة الموعودة التي يصبح فيها المنزل غارقًا في الظلام والسكينة، بحيث تصبح ساعة الجيب الموضوعة عند رأس السرير بالقرب من الشمعة المحترقة مسموعة، كما لو أنها صوت خيط توقيت، وبحيث إنني كنت أشعر بالمزيد من الدهشة والذعر. لماذا عاقبني الربُّ بهذه الطريقة؟ ولماذا وهبني دفعة واحدة حبًّا مزدوجًا في آن واحد معًا؟ حالتيْن من الحب مختلفتين كثيرًا ومفعمتين بالشغف إلى أبعد حد. منحني روعة العشق المؤلم لناتالي، والانتشاء الجسدي الرهيب مع سونيا. كنت أشعر أننا نكاد لا نصمد أمام العلاقة الجسدية الحميمية غير الكاملة، وأنني سوف أُجَنُّ من لحظات الانتظار المتكررة للقاءاتنا الليلية، وبسبب إحساسي بها، فيما بعد، طوال النهار، وكلُّ هذا وأنا إلى جانب ناتالي! بدأت سونيا تغار، وراحت تنفعل بشدّة في

بعض الأحيان، وفي الوقت نفسه كانت تقول لي عندما نكون مع بعضنا فقط:

- أخشى أننا لا نبدو عفويين مع بعضنا بما فيه الكفاية عندما نكون خلف الطاولة وبوجود ناتالي. يُخيَّل لي أنَّ بابا بدأ يلاحظ شيئًا ما، وناتالي أيضًا، كما أن الخادمة أصبحت متيقنة من قصتنا الغرامية، ولا يستبعد أنها تنمُّ لأبي بهذا الشأن. لذلك يتعين عليك أن تجلس مع ناتالي لفترة أطول في الحديقة، وأن تقرأ لها تلك الرواية غير الواضحة «الهاوية»، وخذها في بعض الأحيان في نزهة في أوقات المساء. إنه أمر فظيع، إذ إنني أرى بوضوح كيف أنك تنظر إليها بطريقة بلهاء؛ فأشعر في بعض الأوقات بالكراهية تجاهك، وأصبح مستعدة على غرار ما فعلته امرأة اسمها أوداركا*، أن أتشبث بشعرك على مرأى من الجميع. ولكن لا حيلة لي، فماذا يمكنني أن أفعل؟

أفظع شيء هو أنني بدأت أشعر، كما يُخيَّل لي، إما بالقهر وبالألم، وإما بالسخط وبالغضب، وأنه ثمة شيء ما سرّي بيني وبين سونيا ألا وهو ناتالي. كانت، وهي بالأساس ميالة للصمت، تصبح صامتة أكثر، وتلعب الكروكيت أو تطرّز بدقّة وبعناية مبالغ بها. كنا قد بدأنا نألف بعضنا بعضًا وأصبحنا قريبين. في أحد المرات مازحتها وأنا جالس معها وحدنا

* شخصية محورية وزوجة أحد أبطال في أوبرا «مواطن من زاباروجييه خلف نهر الدانوب» للموسيقار الأوكراني سيميون هولاك أرتيميوفيسكي، والتي أعيد عرضها عدة مرات في الحقبة السوفييتية أيضًا. المترجم

في غرفة الضيوف، حيث كانت تقلّب النوتات وهي نصف مستلقية:

- وصل إلى مسامعي يا ناتالي، أنه من الممكن لنا أن نصبح أقرباء.

نظرت نحوي بسرعة وقالت:

- كيف ذلك؟

- من خلال ابن عمي، ألكسي نيكولا ييفيتش ميشيرسكي...

لكنها لم تتح لي المجال لكي أكمل كلامي، فقاطعتني قائلة:

- آه، هكذا إذن! ابن عمك، ذلك البدين، أرجو المعذرة، صاحب الجسد الممتلئ بشعر أسود لامع وكثيف، ضخم الجثة والألثغ، مع فمٍ مُدهِنٍ أحمر... ومَن ذا الذي أعطاك الحق لكي تتحدث معي في مثل هكذا أمور؟

شعرتُ بالخوف فقلتُ:

- ناتالي، يا ناتالي، لماذا أنتِ صارمة معي إلى هذه الدرجة! حتى إنه لا يمكنني أن أمزح معكِ! أرجو أن تسامحيني إذن. وأمسكتُ يدَها. لم تنزعها من يدي. بل قالت:

- أنا لا أفهم شيئًا حتى الآن... وأنا لا أعرفك... ولكن كفى بهذا الخصوص...

ولكي لا أرى حذاءها الأبيض الخاص بالتنس الذي يجذب الانتباه بقوّة وقد لمّته عن الأريكة، نهضتُ وخرجتُ إلى الشرفة. كانت غيمة تمرُّ من خلف الحديقة، ما جعل الجوَّ باهتًا، ثم راح صخب صيفي لطيف ينتشر ويشتد في أنحاء الحديقة، وفاحت بعذوبة نسائم الأرض المبللة بالمطر، وإذ بسعادة غير مفهومة ومستعدة لقبول أي شيء، تغمرني بطريقة حلوة وفتيّة وحرّة، فهتفتُ:

- ناتالي، تعالي إلى هنا للحظة!

اقتربت من عتبة الشرفة وسألت:

- ماذا هناك؟

- تنشقي، يا له من نسيم رائع! كم كان يمكن لكلِّ شيء أن يتحوّل إلى سعادة حقيقية!

بقيت صامتة.

- بالفعل.

- كم أنت غير لطيفة معي يا ناتالي! هل لديك موقف ما عدائي تجاهي؟

هزّت كتفيها بكبرياء وقالت:

- بماذا؟ ولَمَ يجب أن يكون لدي شيء ما عدائي تجاهك؟

في المساء بقينا نحن الثلاثة صامتين، بينما كنا مستلقين في

كراسي خيزران في الظلام على الشرفة. وحدها نجوم قليلة كانت تتلألأ عبر الغيوم القاتمة، وهبّت من جهة النهر ريح واهنة حيث راحت الضفادع تنق بطريقة ناعسة.

– الطقس يميل نحو المطر، وأنا أشعر بالنعاس. قالت سونيا وهي تكبت تثاؤبها. قالت المربية أنّ الهلال وُلِد ولذلك سوف «يستحمُّ» لمدة أسبوع. ثم أضافت بعد أن سكتت لبرهة: ما هو رأيك يا ناتالي، بخصوص الحب الأول؟

ردّت ناتالي من العتمة:

– أنا على قناعة من أمر واحد فقط: في اختلاف الحب الأول بين شاب وصبيّة.

علّقت سونيا قائلة:

– ولكن الفتيات مختلفات... ثم نهضت بطريقة حاسمة وقالت: كلا، لم أعد قادرة أن أقاوم النعاس! سوف أذهب لأنام!

قالت ناتالي:

– أما أنا فسوف أغفو لبعض الوقت هنا، لأن الجوَّ يروق لي كثيرًا...

قلتُ لها هامسًا وأنا أسمع خطوات سونيا التي راحت تبتعد:

– كما لو أننا تحدثنا معك اليوم بطريقة غير لائقة!

أجابت:

- بلى، بلى، لم يكن حديثنا لطيفًا...

التقينا في اليوم التالي بطريقة بدت عادية وهادئة. كان مطر ناعم قد هطل أثناء الليل، ولكن الطقس في الصباح أصبح مشمسًا إلى درجة أنّ الجوَّ بات بعد الظهيرة حارقًا وجافًا. جلسنا قبيل تناول الشاي في ممر ظليل من أشجار البتولا، ورحنا نحاول أن نكمل قراءة رواية «الهاوية» بصوت مرتفع، بينما كانت سونيا تقوم ببعض الحسابات في مكتب الفارس. كانت ناتالي منحنية وقد راحت تخيط شيئًا ما وهي تبرق بيدها اليمنى، أما أنا فكنت أقرأ وأنظر بين الفينة والأخرى بحزن حلو إلى يدها اليسرى وقد لاحت من الكمِّ، وإلى الزغب الأشقر الناعم الموجود عليها أعلى من الرسغ، وإلى شعيرات أخرى شبيهة بتلك، الموجودة في المكان بين أسفل الرقبة من الخلف وبين الكتف، ثم أعود وأقرأ بنشاط أكبر دون أن أفهم كلمة واحدة. وفي نهاية المطاف قلتُ لها:

- حان دورِكِ الآن لكي تقومي أنتِ بالقراءة...

استقامت فبرزت حلمتاها تحت قميصها الرقيق، ثم وضعت التطريز جانبًا وانحنت من جديد، خافضة رأسها المذهل والبديع، كاشفة لي عن قفا رأسها وعن أعلى كتفها. وضعت الكتاب على ركبتيها وبدأت تقرأ بصوت مستعجل وغير واثق. رحت أتأمل يديها وركبتيها مع الكتاب فوقهما،

وقد أضناني حبٌّ عنيف لكل هذه الأشياء، ولنبرة صوتها. راحت طيور الصفارية تغرِّد وهي تطير في أنحاء مختلفة من الحديقة في وقت الغسق، كما علق عاليًا بمواجهتنا نقار خشب رمادي اللون ضارب إلى الحُمرة ملتصقًا بجذع شجرة صنوبر، كانت قد نمت وحيدة في الممر بين أشجار البتولا.

- كم هو مذهل لون شعرك يا ناتالي! أما الجديلة فداكنة أكثر بلون الذرة الناضجة...

تابعت قراءتها.

- انظري يا ناتالي، إنه نقار الخشب!

ألقت نظرة نحو الأعلى:

- نعم، بالفعل، سبق ورأيته، وها أنا أراه الآن كما أنني رأيته يومَ أمس... ألا تعيقني عن القراءة؟

سكتُّ ثم قلتُ من جديد:

- لاحظي كم أنَّ هذا أشبه بالديدان الرمادية المتيبسة.

- عمّ تتحدث، أين؟

أشرتُ لها إلى المقعد بيننا، حيث كانت توجد فضلات طيور متيبسة وأضفت:

- أليس كذلك؟ ثم التقطتُ يدَها وضغطتُ عليها وأنا أدمدم وأضحك من فرط سعادتي:

- ناتالي، ناتالي!

راحت تنظر إليَّ بهدوء، ومليًّا، ثم قالت ببطء:

- ولكنك تحب سونيا!

شعرتُ بالخجل واحمّر وجهي مثل محتال ضبط متلبسًا، ولكني أنكرتُ سونيا بسرعة وبانفعال شديد، إلى درجة أنها فغرت فاها قليلًا:

- هل هذا ليس صحيحًا؟

- ليس صحيحًا، ليس صحيحًا! أنا أحبّها كثيرًا ولكن كأختٍ لي، إذ إننا نعرف بعضنا منذ أن كنّا صغارًا!

IV

لم تخرج في اليوم التالي إلى الفطور ولا إلى الغداء.

سأل الفارس:

- ما لها ناتالي يا سونيا؟

فأجابته سونيا وهي تقهقه بطريقة خبيثة:

- إنها مستلقية طوال فترة الصباح في ثوب نومها فقط، من دون أن تسرّح شعرها، ويمكن الحكم من خلال وجهها أنها

كانت تبكي. لقد أحضروا لها قهوتها الصباحية، لكنها لم تشربها... وحين سُئلتْ ما بها؟ أجابت أنّها «تعاني من صداع».

- لعلّها أغرمت! هذا أمر بسيط جدًّا. قال الفارس بلهجة مرحة، ونظر نحوي مع تلميح مشجع، وهو يهزّ رأسه علامة الرفض.

لم تخرج ناتالي من غرفتها إلّا وقت تناول الشاي المسائي، لكنها مضت إلى الشرفة برشاقة وبمرح. ابتسمت لي بمودة وبطريقة كما لو أنها مذنبة نوعًا ما، فأثارت دهشتي بنضارتها وبمرحها، بابتسامتها وأناقتها الجديدة إلى حدٍّ ما. كان شعرها مضفورًا بقوّة مع غرة مجعّدة من الأمام، وقد قامت بتمويجه بواسطة الملاقط. كما كان الفستان مختلفًا، من قماش أخضر اللون، قطعة واحدة كاملة، متواضع في تصميمه ومدروس بمهارة، لا سيما عند الخصر، كما كان الحذاء أسود على كعب عال، بحيث إنني شهقتُ في داخلي من البهجة. كنت جالسًا في الشرفة أتصفح كتاب «البشير التاريخي»، الذي كان الفارس قد أعطاني بضعة أعدادٍ منه، حين جاءت فجأة مع تلك الحيوية والمودة المربكة قليلًا:

- مساء الخير. هيا نذهب لشرب الشاي. سوف أقوم أنا اليوم على الخدمة قرب السماور. سونيا تشعر ببعض التوعك.

- كيف ذلك؟ تارة أنت وتارة هي؟

- أنا كنت أعاني من صداع منذ الصباح. أشعر بالحرج إذا ما

اعترفتُ بأنني لم أقم بترتيب أموري سوى الآن...

- كم أنَّ هذا اللون يبدو أخضر إلى درجة قوية جدًّا على خلفية لون عينيك وشعرك! قلتُ لها. ثم سألتُها على الفور:

- هل صدّقتِ ما قلتُه لك مساء أمس؟

احمرّ وجهها واكتسى بلونٍ قانٍ وشفاف، فأدارت وجهها:

- ليس فورًا. ثم استدركتْ على الفور. لا توجد عندي أسباب لكي لا أثق بكلامك... ومن ثمّ، وما علاقتي بمشاعرك تجاه سونيا؟ ولكن، هيا نذهب.

خرجت سونيا إلى العشاء، وعندما سنحت فرصة مناسبة قالت لي:

- لقد مرضتُ. وهذه الحالة صعبة دائمًا عندي، بحيث إنني أبقى مستلقية حوالي خمسة أيام. ما زلتُ قادرة اليوم على الخروج، ولكني في يوم غد لن أتمكن من الخروج إليكم. كن ذكيًّا من دون وجودي معكم. أنا أحبك بطريقة رهيبة وأغار عليك إلى درجةِ الجنون.

- هل يُعقَل أنكِ لن تأتي إليَّ نهائيًا؟

- كم أنت أحمق!

كانت تلك خمسة أيام من السعادة من ناحية، والتعاسة من ناحية أخرى: أن أمضي خمسة أيام كاملة بحرية تامة مع ناتالي،

وألا ألتقي مع سونيا لمدة خمسة أيام! بقيت ناتالي تشرف على أعمال المنزل وتدير كلَّ شيء لمدة أسبوع، فكانت تذهب في مئزر أبيض إلى الفناء وإلى المطبخ. لم يسبق لي أن رأيتها على هذه الدرجة من العملية والجدية، بحيث إنها كانت تشعر بالسرور وبالرضا لأنها تقوم بدور نائبة سونيا في إدارة المنزل وأن تلعب دور سيّدة منزل، كما لو أنها كانت تستريح من الاهتمام الخفي تجاه ما كنا نقوم به أنا وسونيا من نظرات ذات معنى. كانت طيلة هذه الأيام تشعر بالتوجس والقلق أثناء الغداء خشية ألا يكون كل شيء على ما يرام، ومن ثم تشعر بالرضا لأن كلّ شيء على ما يرام، حيث كانت الأوكرانية العجوز خريستيا* هي التي تقوم بأعمال الطبخ والخدمة، فكانوا يقدمون كلَّ شيء في أوانه من دون أن يسببوا أي إزعاج للفارس. وبعد الغداء كانت تذهب إلى غرفة سونيا دون أن تسمحا لي بالدخول، وتبقى عندها حتى حلول ساعة الشاي المسائي، وبعد العشاء تمضي الوقت كله مع سونيا. كان واضحًا أنها تتحاشى البقاء معي لوحدها، وهذا ما كان يثير استغرابي، فأشعر بالضجر وأعاني من الوحدة. لماذا أصبحت حنونة، ولكنها تتجنبني؟ هل تخاف من سونيا، أم من نفسها ومن مشاعرها تجاهي؟ وكم كنتُ أتمنى بقوة أن تكون تخاف نفسها، ولذلك كنتُ أواسي نفسي بحلم راح يتعزز ويتعاظم: لن أكون مرتبطًا مع سونيا إلى الأبد، ولن تبقى ناتالي إلى الأبد ضيفة هنا، كما أنني سوف أرحل من هنا في جميع الأحوال بعد أسبوع أو أسبوعين،

* اسم علم مؤنث. المترجم

وعندئذ سوف تكون نهاية آلامي. سوف أجد حجّة لكي أسافر ذات يوم لكي أتعرّف على أسرة آل ستانكيفيتش، بمجرّد أن تعود ناتالي إلى بيتهم. مما لا شك فيه أنه سيكون من الصعب والمؤلم جدًّا أن أرحل عن سونيا، وفوق ذلك مع خداع، بل وأنا أحلم في سرّي بناتالي، ومع أمل بأنني سوف أحظى بحبها وبالزواج منها. هل أنا أقبِّل سونيا لأجل الشغف وحسب؟ وهل أنا لا أحبّها في حقيقة الأمر يا تُرى؟ ولكن ما العمل؟ لن يكون ثمة مفر من مواجهة كلّ ذلك. وبينما كنتُ أفكِّر على هذا النحو باستمرار، وبينما كنت أعيش اضطرابًا روحيًا دائمًا بانتظار شيء ما، رحتُ أعمل جاهدًا كي أضبط نفسي أثناء اللقاء مع ناتالي، وأن أتصرّف بلطف قدر المستطاع. أن أصبر وأصبر لفترة معينة. كنت أعاني وأشعر بالملل، وكما لو أن ذلك كان عن قصد، راح المطر يهطل على مدى ثلاثة أيام بلا توقف، كان يهطل ناعمًا ويضرب بآلاف القطرات على السطح. كما كان البيت مظلمًا، وكان الذباب يبيت في السقف وعلى المصابيح في غرفة الطعام. ولكني رحتُ أصبر وأنا أجلس لساعات في مكتب الفارس وأصغي إلى حكاياته المختلفة.

بدأت سونيا بالخروج بداية الأمر في رداء لمدة ساعة ثم ساعتين، مع ابتسامة حزينة حيال وهنها، فكانت تتمدد على الشرفة في كرسي من القماش. وكانت لدهشتي تتحدث معي بطريقة نزقة وبحنان مفرط، دون أن تشعر بالحرج من وجود ناتالي إلى جانبنا، كأن تقول لي:

- اجلس بقربي، يا فيتيك*، فأنا مريضة وحزينة، وهاتِ حدّثني عن أشياء مسلّية...

كان الهلال قد أصبح نظيفًا كما لو أنه اغتسل بالفعل، وأصبح الطقس مشرقًا وجميلًا وراحت الأزهار تفوح برائحة طيبة... كنت أجيبها مع شعور بالانزعاج في داخلي فأقول لها:

- طالما أنَّ الأزهار تفوح برائحة قوية، فهذا يعني أنها سوف تغتسل مرة أخرى.

كانت تضربني ممازحة على يدي وتقول لي:

- إياك أن تجادل إنسانًا مريضًا!

وفي نهاية المطاف أصبحت تخرج إلى الغداء وإلى تناول الشاي مساء، ولكنها كانت ما تزال شاحبة، وكانت تطلب أن يقدموا لها الكرسي ذات الذراعين. لكنها لم تخرج بعد العشاء، وكذلك إلى الشرفة. لقد قالت لي ناتالي ذات مرة بعد تناول الشاي مساء، وبعد أن ذهبت سونيا إلى غرفتها وحملت خريستيا السماور إلى المطبخ:

- إن سونيا غاضبة لأنك تبقى وحدك طوال الوقت. لم تتعافَ بعد، وأنت تشعر بالملل من دونها.

- أنا أشعر بالملل حين لا تكونين أنت موجودة معي، أنا أفتقدك أنتِ...

* صيغة التحبب ورفع الكلفة من فيتالي. المترجم

تغيّر لون وجهها ولم تضبط نفسها، فابتسمت بصعوبة وقالت:

- سبق واتفقنا ألا نختلف أكثر... أعتقد أنه من الأفضل التالي: لقد أمضيت وقتًا طويلًا وأنت جالس في البيت، لذلك اذهب وتنزّه حتى وقت العشاء، وبعد ذلك سوف أجلس معك في الحديقة، إذ إنَّ توقعاتك بشأن الهلال لم تتحقق، الحمد لله، وسوف يكون الجوُّ في الليل بديعًا...

- أشعر بالحزن على سونيا، وأنت؟ ألا تشعرين بالحزن لأجلها؟

- حزينة لأجلها إلى أبعد حد. أجابت وانفجرت ضاحكة بطريقة غريبة وراحت تضع فناجين الشاي في الصينية. ولكن سونيا أصبحت متعافية، الحمد لله، ولذلك لن تشعر بالملل عمّا قريب. ومع كلمات «وفي المساء سوف أجلس معك في الحديقة»، شعرتُ بانقباض لذيذ وغامض يغمر قلبي، ولكني استدركتُ على الفور وفكّرتُ: كلا، هذه مجرد عبارة مجاملة لطيفة وحسب!

ذهبتُ إلى غرفتي، وبقيتُ مستلقيًا هناك لفترة طويلة وأنا أحدِّق في السقف. وأخيرًا نهضت، وتناولت في المدخل سِدارتي وعصا تعود لشخص ما، ثم خرجت من الدار إلى طريق معبّد عريض يمر بين المزرعة وبين قرية فلاحية، أعلى منها بقليل عبر تلّة سهبية عارية. كانت الطريق تقود إلى حقول مسائية خالية من الناس. وكانت المنطقة مليئة بالتلال ولكنها

شاسعة ومكشوفة لمسافة بعيدة جدًّا. كان ثمة واد نهري على يساري ومن بعده كانت تمتد حقول فارغة باتجاه الأفق، هناك حيث غابت الشمس للتو، فكان الغروب يشتعل بلون قرمزي. وإلى يميني، كان هناك بمواجهة الغروب، صفّ منتظم من الأكواخ البيضاء المتشابهة وقد اصطبغت بلون أحمر وكأنها أطلال قرية مندثرة. وهكذا رحت أنظر بحزن وبأسى تارة إلى الغروب، وتارة إلى الأكواخ. وعندما عدتُ أدراجي، هبت لملاقاتي ريح دافئة تارة وحارّة تارة أخرى، وكان الهلال الفتي قد بدأ يضيء في السماء دون أن يعِد بما هو حسن: كان نصفه يتلألأ فقط، وأما نصفه الثاني فكان يبدو وكأنه مغطّى بشبكة عنكبوتية، ما جعل المنظر ككل يبدو أشبه بشجرة بلوط.

أثناء العشاء -وقد تناولناه هذه المرة في الحديقة، لأن الجوَّ في البيت كان خانقًا- سألت الفارس:

- قل لي يا خالي، ما هو رأيك بحالة الطقس؟

- يبدو لي أنّ يوم غد سوف يكون ماطرًا، ولكن لماذا تسأل يا صديقي؟

- ذهبت قبل قليل إلى الحقول، ورحت أفكّر بحزن أنني سوف أغادركم قريبًا...

- ولماذا؟

فنظرت ناتالي نحوي وسألتني:

- هل قررت الرحيل؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ضحكتُ بطريقة مصطنعة وقلت:

- ولكنني لا أستطيع...

هزّ الفارس رأسه بقوة أكثر مما في مرات أخرى، وبصورة مسوَّغة هذه المرة، وقال:

- هراء، هراء! يمكن لأبيك ولأمك أن يصبرا على فراقك. وأنا لن أسمح لك بالسفر قبل أسبوعين. وحتى إنَّ ناتالي لن تسمح لك بالمغادرة.

- لا أملك أي حقوق على فيتالي بيتروفيتش! عقّبت ناتالي.

هتفتُ بنبرة شاكية:

- احظرْ يا خالي، على ناتالي، أن تناديني بهذه اللهجة الرسمية!

ضرب الفارس الطاولة بقبضة يده وقال:

- ممنوع. وكفى ثرثرة بشأن الرحيل. أما بخصوص المطر فأنت على حق، ومن الممكن جدًّا أن يسوء الطقس من جديد.

- كانت الحقول نظيفة إلى درجة كبيرة، وكان الجو صحوًا. قلت. كما أنَّ الهلال كان نصفه فقط مشرقاً وواضحًا، أشبه بالبلوط، فضلًا عن أنّه كانت ثمة ريح جنوبية. وها هي السماء تتلبد بالغيوم كما ترون.

استدار الفارس وألقى نظرة نحو الحديقة، حيث كان ضوء القمر يختفي تارة ويُضيء تارة أخرى:

- سوف تصبح يا فيتالي، بروس* ثانٍ.

خرجت ناتالي حوالي العاشرة مساءً إلى الشرفة، حيث كنت أجلس في انتظارها وأنا أقول في نفسي بحزن ويأس:

- كل هذا مجرد هراء، وفي حال كانت لديها أي مشاعر تجاهي فإنها مشاعر غير جدّية ومتقلِّبة وعابرة...

كان الهلال الصغير، المتلألئ أيضًا، من دون شبكة عنكبوتية، يلمع وهو يرتفع ويصبح أكثر توهجًا وسط كتل السحب التي راحت تتلبد، وتصبح بيضاء دخانية تزدحم في السماء بطريقة مهيبة. وعندما كان الهلال يخرج من خلف السحب بنصفه الأبيض المنير الذي يشبه صورة جانبية لوجهٍ بشري، مضيء وشاحب شحوب الموتى، كان يشرق كلُّ شيء ويمتلئ بضوء فوسفوري. استدرتُ فجأة إلى الخلف لأنني أحسست بأمر ما: كانت ناتالي تقف على عتبة الشرفة، وقد صالبت ذراعيها خلف ظهرها وراحت تنظر إليَّ مليًّا. نهضت واقفًا فسألتني بنبرة لا مبالية:

- ألم تنمْ بعد؟

- ولكنك قلتِ لي...

- أرجو المعذرة، لقد تعبتُ كثيرًا اليوم. دعنا نتمشى قليلًا في الممر بين الأشجار، ومن ثم سوف أذهب للنوم.

---

* المقصود ياكوف بروس ١٦٦٩ - ١٧٣٥ م: عالم فلك من الإمبراطورية الروسية. ولد في موسكو. توفي عن عمر يناهز ٦٦ عاماً. المترجم

مشيتُ خلفها، فتوقفت للحظة على سلّم الشرفة، وراحت تنظر إلى قمم الأشجار في الحديقة حيث راحت الغيوم ترتفع من ورائها على شكل كتل وهي تلمع وتبرق بصمت. ثم دخلت تحت مظلّة شفافة طويلة لممر من أشجار البتولا، بألوان زاهية مختلفة وتمتزج فيها بقع الضوء والظلام. عندما أصبحتُ في محاذاتها طلبتُ منها أن تقول شيئًا لي:

- كم هي أشجار البتولا تتلألأ في البعيد بطريقة ساحرة. لا يوجد ما هو أكثر غرابة وجمالًا من عمق الغابة في ليلة مقمرة، ومع وجود هذا الحفيف الناعم كالحرير لجذوع أشجار البتولا في أعماق الغابة.

توقفت وراحت تحدِّق فيَّ بعينيها السوادوين وسط العتمة:

- هل أنت راحل بالفعل؟

- نعم. لقد حان الوقت.

- ولكن لماذا بهذه الطريقة المفاجئة وعلى عجل؟ سوف أكون صريحة، لقد صدمتني يوم أمس عندما أعلنت عن رحيلك.

- هل يمكنني يا ناتالي، أن أذهب وأن أقدِّم نفسي لأهلك حين تعودين إلى البيت؟

التزمت الصمت. تناولتُ يدها اليمنى وقد تجمّدتُ بأكملي.

- ناتالي...

- بلى، بلى، أنا أحبُّك. قالت بلهجة متعجلّة وبطريقة غير معبّرة، ثم قفلت راجعة إلى المنزل.

مضيت وراءها مثل شخص مسرنم. فقالت لي دون أن تلتفت إلى الوراء:

- ارحل غدًا من كلِّ بد. سوف أعود إلى بيتنا بعد بضعة أيام.

V

دخلت إلى غرفتي وجلستُ على الأريكة دون أن أشعل الشمعة، ثم لبثتُ جامدًا في تلك الحالة الرهيبة والرائعة التي نشأت في حياتي بطريقة مباغتة وغير متوقعة. بقيتُ جالسًا وقد فقدتُ أيَّ توجّه في الزمان والمكان. كانت الغرفة والحديقة غارقتيَن في العتمة من جراء السحب القاتمة، وقد راح كلّ شيء في الخارج، خلف النافذة، يضجُّ ويهتزُّ. كانت تنيرني مع تزايد أكبر وقوة أكثر ومضات زرقاء خضراء لبرق تطول لثانية ثم تختفي. راحت سرعة وقوة هذا البرق من دون رعد تشتدان بالتدريج، ومن ثم أضيئت الغرفة فجأة إلى درجة بات معها بالإمكان رؤية كل شيء بوضوح لا يصدَّق، ثم اجتاحتني رياح

طازجة وضوضاء في الحديقة، كما لو أنها أصيبت بنوع من الذعر. هكذا إذن، السماء والأرض تتوهجان! نهضت بسرعة ورحت أغلق النوافذ بصعوبة الواحدة تلو الأخرى، وأنا أمسك بها من أطرافها، وأغالب الريح التي تعصف بي، ثم جريتُ مسرعًا في الممرات المظلمة على رؤوس أصابعي إلى غرفة الطعام، وقد بدا لي أنَّ الوقت لا يسمح بإغلاق النوافذ المفتوحة في غرفة الطعام وغرفة الضيوف، حيث كان يمكن للعاصفة أن تكسِّر الزجاج فيها، ولكني مع ذلك ركضت مع نوع من القلق. تبين أنَّ جميع النوافذ في غرفتي الطعام والضيوف كانت مغلقة. لقد رأيتُ ذلك في ضوء الوهج الأزرق والأخضر للبرق، الذي كان لونه وقوّة توهجه أشبه بما هو غير أرضي حقًّا، وقد سطع على الفور وفي كل مكان، كما لو أنه طرفتان سريعتان لعينين، وبحيث إنه جعل كافة أطر النوافذ ضخمة وشديدة الوضوح بكلِّ تفاصيلها، ومن ثمّ انطفأ مخلِّفًا عتمة كثيفة تركت للحظة، في حقل البصر الأعمى، أثرًا لشيء بلون قصديري أحمر. وعندما دخلتُ إلى غرفتي بسرعة، كما لو أنني كنت أخشى أن يكون حدث فيها شيء ما في غيابي، التقط سمعي في قلب الظلام صوتًا هامسًا وحانقًا يقول:

- أين كنتَ؟ أشعر بالخوف، هيا اشعلْ النار بسرعة...

أشعلتُ عود ثقاب وإذ بي أرى سونيا جالسة على الأريكة في ثوب نومها فقط، وفي حذاء على قدميها العاريتين.

- أو لا، لا، لا داعي -قالت على عجل- تعال إليَّ بسرعة،

واحتضنّي لأنني أشعر بالخوف...

جلست طائعًا واحتضنتُها من كتفيها الباردين. فقالت لي هامسة:

- هيا قبّلني، قبّلني، وادخل فيَّ بالكامل، فأنا لم ألتقِ بك منذ أسبوع!

ثم دفعتني على وسادة الأريكة وهي معي أيضًا.

في نفس هذه اللحظة، برزت ناتالي عند عتبة الباب في ردائها الخاص بالنوم، وهي تحمل شمعة بيدها. رأتنا في الحال، ولكنها صرخت من دون وعي:

- أين أنتِ يا سونيا؟ أنا أشعر بخوف شديد... ومن ثم اختفت على الفور.

هرعت سونيا راكضة خلفها.

VI

تزوجت من ميشيرسكي بعد مرور عام. جرت مراسيم التكليل في قريته بلاغاداتنوي في كنيسة خالية من الناس -نحن وغيرنا من أقربائه وأقربائها لم نستلم دعوة إلى حضور حفل

الزفاف. ولم يقبل العرسان بواجب الزيارة بعد الزفاف كما درجت العادة، بل غادرا على الفور إلى القرم.

في شهر يناير من العام التالي، في يوم القديسة تاتيانا، أقيم حفل الباليه السنوي المكرس لطلاب فورونيج، وذلك في قاعة النبلاء في مدينة فورونيج. وقد أمضيتُ أنا، وكنتُ تلميذًا من موسكو، فترة الأعياد في البيت في القرية، وسافرتُ إلى فورونيج في نفس اليوم الذي أقيم فيه الحفل. وصل القطار وكان أبيضَ بأكمله وهو يطلق أبخرة ثلجية من جراء الزوبعة الثلجية، ولم تكن أضواء المصابيح تُرى في الطريق وهي تلمع من خلال الزوبعة الثلجية إلّا بصعوبة بالغة، وذلك في المسافة بين محطة القطارات وفندق دفوريانسكايا حيث قامت عربة جر بنقلي. بيدَ أنَّ هذه الزوبعة وهذه الأضواء في المدينة راحت تثيرني بعد الفترة التي قضيتها في القرية، وتعدني بقرب دخولي إلى غرفة دافئة، بل دافئة جدًّا في فندق الناحية القديم، وأن أطلب الشاي، ومن ثم أبدأ بتغيير ملابسي والاستعداد لقضاء ليلة طويلة من الحفل الراقص، وإلى شرب الكحول بالإضافة إلى سُكْرٍ طلابي يمتد حتى الفجر. خلال الفترة الرهيبة، التي مضت بعد تلك الليلة الرهيبة، في بيت آل تشيركاسوف ومن ثم زواجها، رحتُ أتماثل للشفاء بالتدريج. على أي حال، بدأت أعتاد على تلك الحالة التي تنشأ عند شخص مريض نفسيًا، والتي كنتُ فيها في حقيقة الأمر. وعشتُ من الناحية الظاهرية كما يعيش بقية الناس.

عندما وصلتُ كان الحفل الراقص قد بدأ للتو، ولكن السلالم في قاعة الاستقبال والصالات الملاصقة لها، كانت مكتظة بالناس الذين راحوا يتوافدون باستمرار، وكانت موسيقى الفرقة العسكرية الهادرة من القاعة الرئيسية مع الجوقة فيها، تغطّي وتصمُّ الآذان وهي تهدر بصخب على إيقاع ألحان الفالس الحزينة والمظفرة. ولما كان وجهي ما زال منتعشًا ونضرًا بسبب الصقيع، وفوق ذلك في بدلة جديدة تمامًا، ما جعلني أبدو أنيقًا إلى درجة كبيرة جدًّا، فقد رحتُ أشقُّ طريقي بهدوء وبلطف مبالغ به وسط الحشد على السلّم المفروش بالسجاد الأحمر. فصعدتُ إلى الردهة، ومن ثم دخلتُ إلى جمهور مكتظ بشكل هائل كان قد أصبح حارًّا وقد تزاحمَ قرب أبواب الصالة. ولسبب ما مضيت في طريقي، وبإصرار، بحيث إنهم لا بدَّ اعتقدوا أنني المدير المسؤول الذي كان لديه عمل هامّ وعاجل في الصالة. وأخيرًا وصلتُ إلى حيث شئتُ، ثم توقفت عند العتبة ورحت أسمع فيضان وهدير الأوركسترا فوق رأسي تمامًا، وأنا أتأمل الثريات المتلألئة وعشرات الأزواج من الناس الذين راحوا يلوحون تحتها بأشكال مختلفة وهم يرقصون الفالس. وفجأة قفلتُ طريقي عائدًا: برز فجأة ثنائي واحد بالنسبة لي من بين هذه الأزواج، وقد راح هذا الثنائي ينزلق بحركات راقصة حاذقة وسط جميع الآخرين متجهًا نحوي. ارتعبتُ وأنا أراقب كيف أنهُ، وقد كان محدودبًا بعض الشيء أثناء الرقص، يبدو ضخمًا وقوي البنية، مع شعر كثيف أسود لامع يلبس الفراك، ورشيقًا بنفس تلك

الرشاقة التي أكثر ما يُثارُ الجمهور بها أثناء الحفلات الراقصة، وكم كانت هي تبدو طويلة القامة وفي تصفيفة عالية للشعر، ترتدي فستانًا أبيض اللون خاصًّا بحفلات الباليه وفي حذاء ناعم ذهبي اللون، وقد راحت تدور وهي مرجعة رأسها قليلًا نحو الوراء مسبلة عينيها، وتضع يدها في قفاز أبيض يصل حتى المرفق على كتفه، مع انحناءة تجعل الذراع أشبه برقبة بجعة. ارتفعت رموشها السوداء للحظة ونظرت إليَّ مباشرة، فلمعت عيناها السوداوان على مسافة قريبة جدًّا. ولكنه قام، وبعناية شخص ضخم، بالانزلاق ببراعة على رؤوس قدميه، فأدارها بحدّة، فافترت شفتاها عن شهقة دهشة عند الانعطاف، ولمع طرف ثوبها بلون فضي، ومن ثم راح الثنائي يبتعد بقفزات راقصة. رحت أشقُّ طريقي من جديد وسط الحشد في الردهة، ثم خرجت من وسط الناس ووقفت وحدي. شاهدتُ من خلال باب القاعة المواجهة لي بشكل غير مباشر، والتي كانت ما تزال خالية وباردة، طالبتين في ملابس روسية تقفان بأيدي مكتوفة خلف منضدة الشرب، حيث يبيعون الشمبانيا. كانت إحداهما شقراء جميلة، والثانية جافة وجميلة سمراء من القوزاق، وكانت كلٌّ منهما أطول مني قامة بمعدل الضعف تقريبًا. دخلتُ ومددتُ يدي، مع انحناءة، بورقة نقدية من فئة المائة روبل. قامتا بإخراج قنينة ثقيلة من سطل مع ثلج موجود تحت المنضدة، فاصطدمتا برأسيهما ما جعلهما تضحكان، ومن ثم تبادلتا النظر فيما بينهما. لم يكن ثمة قوارير مفتوحة حتى اللحظة. مضيت إلى خلف المنضدة، وبعد لحظات

نجحت في فتح السدادة ببراعة. ثمَّ اقترحتُ بمرح على كلٍّ منهما كأسًا -Gaudeamus igitur!*- أما الباقي فقد شربته كأسًا بعد كأس. راحت الطالبتان تنظران إليَّ بدهشة في بداية الأمر، ومن ثمَّ بشفقة:

- ياه، ولكنك شاحب إلى درجة فظيعة!

أكملتُ شرب القنينة ثم غادرت على الفور. وفي الفندق طلبتُ أن يجلبوا لي إلى الغرفة قنينة من الكونياك القوقازي، ثم رحت أشربه رويدًا في فناجين مخصصة للشاي وكلّي أمل بأن يحدث عندي تمزق في عضلة القلب.

وها قد مضى عام ونصف، وفي أحد الأيام من أواخر شهر مايو، وبعد أن وصلت من موسكو إلى البيت في القرية مرّة أخرى، أحضر لي ساعي خاص من المحطة برقية منها، من بلدة بلاغوداتنوي التي تسكنها، تقول فيها: «توفي اليوم صباحًا الكسي نيكولاييفيتش فجأة بسبب إصابته بسكتة دماغية».

رسم أبي علامة الصليب وقال:

- ملكوت السماء. يا لها من كارثة! اغفر لي يا رب، ولكني لم أشعر يومًا بالمحبة له، ومع ذلك إنَّ هذا أمر فظيع! فهو لم يبلغ الأربعين سنة بعد. أشعر بالحزن عليها إلى أقصى درجة. أن تترمّل في مثل هذه السن ومع طفل صغير لديها. لم يسبق لي أن رأيتها في أي يوم من الأيام. لقد كان مؤدّبًا بحيث إنه لم

* سوف نقضي وقتًا مرحًا (باللاتينية). المؤلف.

يحاول قط أن يأتي بها إلى بيتي. ولكنهم يقولون إنها جميلة وفاتنة. ما العمل الآن؟ لا يمكننا أنا وأمّك الطاعنين في السن أن نسافر إلى مسافة فرسخ ونصف، لذلك يجب أن تسافر أنت.

لم يكن ممكنًا أن أرفض المشاركة، ثمَّ لأي سبب يجب عليَّ أن أرفض المشاركة؟ بل إنني لم أكن لأرفض المشاركة في العزاء حتى ولو أنني كنت في تلك الحالة من الخبل التي اجتاحتني مرة أخرى عند سماع هذا النبأ المباغت. كنتُ واثقًا من أمر واحد: سوف أراها! كانت حجة لقائي بها رهيبة ولكنها مشروعة.

قمنا بإرسال برقية جوابية، وفي اليوم التالي، في مساء يوم من أيام شهر مايو، جاءت عربة تجرها جياد من بلاغوداتنوي، وقامت بنقلي من محطة القطار إلى المزرعة خلال أقل من نصف ساعة. وبينما كنت أقترب، عبر تلّة تمتد في محاذاة المروج المغمورة بمياه المطر، رأيتُ من بعيد أن شبابيك جميع النوافذ في الحائط الغربي للبيت من جهة الشمس الغاربة كانت مغلقة، فانتابتني قشعريرة من فكرة رهيبة: كان ممدّدًا هناك وهي إلى جانبه!

كانت أجراس عربتين تجرّهما ثلاثة جياد لا أعرف لمن تعودان، ترن في باحة الدار التي امتلأت بالعشب الصغير الناعم بالقرب من الإسطبل المخصص للعربات، ولكني لم أرَ أحدًا هناك باستثناء الحوذيين الذين كانوا جالسين في مقاعدهم.

كان جميع الوافدين وأهل البيت والخدم واقفين في الجنازة داخل البيت. كان يسود سكون المساء في شهر مايو في القرية، إلى جانب النقاوة الربيعية، مع النضارة والابتكار في كلّ شيء، هواء الحقول والنهر، وهذا العشب الفتي الطري في باحة الدار، والحديقة التي بدأت تزهر وتتفتح بكثافة وقد راحت تقتحم المنزل من الخلف ومن جهة الجنوب. وأما عند الشرفة المخصصة للاستقبال، قرب أبواب المدخل المفتوحة على مصراعيها، فكان يقف غطاء التابوت الكبير والمغطى بالديباج الأصفر مستندًا إلى الحائط. فاحت في أجواء المساء البارد قليلًا رائحة قوية وحلوة لإجاص، راح يتلألأ ببياضه الحليبي بكثافة في الجزء الجنوبي الشرقي من الحديقة، على خلفية السماء المنبسطة والكامدة من جراء هذا اللون الحليبي، حيث كان نجم المشتري الوردي وحده متوهجًا. وإذ بمشاعر الشباب، وبسحر وجمال كل ما حولي، والتفكير بجمالها وبشبابها، وأنها أحبَّتني ذات يوم، كلّ هذا مزّق قلبي فجأة وغمره بالحزن، بالسعادة وبالحاجة إلى الحب، بحيث إنني بعد أن قفزت من العربة قرب الشرفة، شعرتُ كما لو أنني على حافة هاوية تمامًا. كيف يمكن أن أدخل إلى هذا البيت وأن ألتقي بها وجهًا لوجه من جديد، بعد ثلاث سنوات من الفراق، وبعد أن أصبحت أرملة وأمًّا؟ ومع ذلك دخلتُ إلى قاعة فظيعة ومعتمة تفوح برائحة البخور، مليئة بأضواء الشموع الصفراء، وإلى ذلك السواد الذي يجلل أولئك الذين وقفوا مع هذه الأضواء أمام التابوت، وقد وُضِع منحرفًا ومرفوعًا بعض الشيء من جهة الرأس في الزاوية

الأمامية، وينيره من الأعلى مصباح أحمر كبير يتدلى أمام الإطارات الذهبية للأيقونات، ومن الأسفل بريق فضي متلألئ لثلاث شمعات كنسية عالية. دخلتُ على وقع هتافات وإنشاد المصلين الذين راحوا يدورون حول التابوت حاملين المباخر وهم ينحنون ويبتهلون، وعلى الفور قمتُ بخفض رأسي لكي لا أرى القماش الأصفر على التابوت ووجه المتوفى، وأكثر ما كنتُ أخشاه هو أن أراها. أعطاني أحدهم شمعة مشتعلة، فأخذتها وحملتها وأنا أشعر كيف أنها تخفق وهي تدفّئ وتنير وجهي المنكمش من الشحوب، ورحت أستمع بخنوع أحمق إلى تلك الهتافات وقعقعة المباخر، وأنا أشاهد من طرف عيني دخانها المتصاعد بطريقة مظفرة وبرائحة لاذعة نحو السقف. فجأة رفعتُ رأسي، وإذ بي أراها بالرغم من كلِّ ذلك -كانت في مقدمة الجميع، في ملابس الحِداد، تحمل شمعة بيدها راحت تنير وجنتها وشعرها الذهبي اللون- ولم أعد قادرًا أن أشيح نظري عنها كما لو أنها أيقونة. عندما هدأ كلّ شيء وامتلأ المكان برائحة الشموع المطفأة، بدأ الجميع يتحركون على مهل ثم مضوا نحوها لكي يقبّلوا يدها، انتظرتُ لكي أكون آخر من يقترب إليها. وعندما اقتربتُ، نظرتُ بابتهاج مرعب إلى الرشاقة الرهبانية لفستان الحداد عليها الذي جعلها طاهرة بشكل مميز، وإلى جمال وجهها الفتي والنقي، وإلى رموشها وعينيها وقد أخفضتهما عند رؤيتي، فانحنيت لها إلى الأسفل كثيرًا، وقلتُ لها وأنا أقبّل يدَها، بصوت لا يكاد يُسمِع، كلَّ ما كان بودّي أن أقوله، ملتزمًا اللياقة وصلة القرابة. وطلبت منها

السماح لي بأن أغادر على الفور لكي أمضي الليل في الحديقة، في نفس ذلك الروَطَن* القديم الذي سبق وقضيت فيه ليلتي ذات يوم عندما كنت تلميذًا في المدرسة الداخلية، عندما كنت آتي إلى قرية بلاغوداتنوي -كانت غرفة نوم ميشيرسكي قائمة هناك في ليالي الصيف الحارّة. فأجابتني دون أن ترفع عينيها قائلة:

- سوف أعطي التعليمات فورًا لكي يأخذوك إلى هناك ويقدموا العشاء لك.

غادرت على الفور في الصباح، بعد مراسم الجنازة والدفن. وأثناء الوداع تبادلنا من جديد بضع كلمات فقط، ودون أن ينظر أحدنا في عيني الآخر من جديد.

VII

أنهيت تعليمي، وسرعان ما فقدتُ بعد ذلك، وفي وقت واحد تقريبًا، أبي وأمي، فسكنت في القرية ورحت أعمل

* الرَوطَن من اللاتينية (rotundus): هو أي مبنى دائري الأرضية، وفي بعض الأحيان تعلوه قبة (مثال ذلك البانثيون في روما بإيطاليا، وكذلك يطلق على الغرف الدائرية الموجودة في المباني: مثال ذلك كابيتول الولايات المتحدة في واشنطن العاصمة. المترجم

في الأرض، وتآلفتُ مع يتيمة من أسرة فلاحية اسمها غاشا* كانت قد ترعرعت في بيتنا، وكانت تقوم على خدمة والدتي. ها هي الآن تقوم بخدمتي، بالإضافة لإيفان لوكيتش الخادم السابق عندنا، والذي أصبح عجوزًا شائبًا لدرجة اخضرار الشعر، بلوحي كتفيه الكبيرين. كان شكلها ما زال أقرب إلى الطفولة، ضئيلة الجسم ونحيلة، ذات شعر أسود، ولها عينان بلون السخام خاليتان من أي تعبير، صامتة بطريقة ملغزة كما لو أنها لا تكترث بأي شيء البتة. كما كانت بشرتها رقيقة وداكنة جدًّا، إلى درجة أنَّ والدي كان يقول في بعض الأحيان: «لا بدَّ أن هاجر كانت بنفس اللون تمامًا». كانت عزيزة بالنسبة لي إلى أبعد حد، وكنت أحبُّ أن أحملها على يدي وأقبلها وأقول لها: «هذا هو كل ما بقي لدي في هذه الدنيا!». كانت تفهم على الأرجح ما الذي أقصده. وعندما وَلدتْ -صبيًّا صغيرًا وأسود البشرة- وكفت عن القيام بخدمتي، أصبحت تعيش في الغرفة التي أمضيتُ فيها طفولتي، وكان بودي أن أقترن بها رسميًا. لكنها كانت تجيب:

- كلا، لستُ بحاجة لذلك، بل سوف أشعر بالخزي وبالخجل وحسب، فأية سيّدة أنا! وما حاجتك لذلك؟ حينئذ سوف تكف عن محبتي وسوف تكرهني بسرعة. أنت بحاجة لأن تسافر إلى موسكو، لأنك ضجرت كثيرًا بسبب بقائك معي طوال الوقت. أما أنا فلن أشعر بالملل بعد الآن. قالت وهي تنظر إلى الطفل

* صيغة الدلع والتحبب من الاسم الأنثوي أغافيا، وهو اسم روسي من أصل يوناني. المترجم

الذي كانت تحمله على ذراعيها وهو يرضع من ثديها. اذهب وتمتّع بحياتك، ولكن تذكّر أمرًا واحدًا فقط: في حال أنك أغرِمت بإحداهن بقوّة، وقررت الزواج منها، فإني لن أتردد لحظة، وسوف أغرق نفسي مع الطفل بكل تأكيد.

نظرتُ إليها. كان من المستحيل للمرء ألّا يثق بكلامها. فأخفضتُ رأسي وقلتُ:

- نعم... عمري، بالمناسبة، ستٌّ وعشرون سنة فقط...

لم يكن بإمكاني أن أتخيّل نفسي مغرمًا وأن أتزوج، ولكن كلمات غاشا ذكّرتني مرة أخرى بحياتي البائسة والهالكة.

سافرت في مطلع الربيع إلى خارج البلاد حيث أمضيت هناك أربعة أشهر. وعندما كنت عائدًا إلى البيت عن طريق موسكو، رحتُ أفكّر على النحو التالي: سوف أعيش فصل الخريف في القرية، ومن ثم سوف أغادر في فصل الشتاء إلى مكان ما.

في الطريق من موسكو إلى مدينة تولا، شعرتُ بالحزن بطريقة هادئة: ها أنا ذا في البيت من جديد، ولكن لماذا؟ تذكّرتُ ناتالي، فخطر ببالي: نعم، يوجد مثل ذلك الحب «حتى القبر»، الذي كانت قد تنبأت لي به سونيا ساخرة. ولكني اعتدتُ على ذلك الحب كما يعتاد شخص ما بمرور السنوات على بتر يده أو ساقه، على سبيل المثال... وبينما كنت جالسًا في محطة القطار في مدينة تولا بانتظار الانتقال إلى قطار آخر،

أرسلتُ فجأة برقية: «أنا مسافر من موسكو على مقربة منكم، سوف أصل إلى محطتكم في التاسعة مساء، اسمحوا لي بأن أعرِّج عليكم لكي أعرف كيف هي حياتكم تسير؟».

استقبلتني قرب المدخل، وكانت الخادمة تضيء من خلفها بواسطة قنديل، ومدّت، وهي تبتسم قليلًا، كلتا يديها قائلة:

- أنا سعيدة جدًّا!

- كم إنَّ هذا عجيب، لقد كبرتِ بعض الشيء. قلتُ وأنا أقبّل يديها وأشعر بهما، مع نوع من الألم.

نظرتُ إليها بأكملها من فوق إلى تحت على ضوء القنديل الذي رفعته الخادمة قليلًا، وقد راحت تحوم حول بلورته في الهواء الرطب بعد هطول المطر، فراشات صغيرة زهرية اللون. كانت العينان السوداوان تنظران بطريقة أكثر صرامة وبثقة أكبر، كانت كلها بكامل نضوج جمالها الأنثوي، ممشوقة القد وأنيقة بطريقة متواضعة، في فستان من حرير التوسة الأخضر.

- بلى، ما زلتُ أنمو. أجابت وهي تبتسم بأسى.

كان المصباح الكبير الأحمر ما زال معلّقًا في قاعة الضيوف في الركن الأمامي في مقابل الأيقونات الذهبية القديمة، ولكنه لم يكن مضاء. أشحتُ بنظري بسرعة عن تلك الزاوية ومضيتُ خلفها إلى غرفة الطعام. كان هناك على الغطاء النظيف اللامع للطاولة إبريق للشاي موضوعًا فوق موقد كحولي، وإلى جانبه

تتلألأ أدوات الشاي الأنيقة. جلبت الخادمة شرائح باردة من لحم العجل وبعض المخلل ودورقًا من الفودكا، إلى جانب قنينة من النبيذ الفرنسي الأحمر «Lafite». أمسكتْ بإبريق الشاي وقالت:

- أنا لا أتعشّى، سأشرب الشاي فقط، أما أنت فيجب في البداية أن تتعشى... هل أنت قادم من موسكو؟ لماذا؟ وكيف يكون العمل هناك في فصل الصيف؟

- كنتُ عائدًا من باريس.

- آه... وهل بقيت هناك لفترة طويلة؟ أوه، كم أتمنى لو أنَّ بإمكاني السفر إلى مكان ما! لكن ابنتي في الرابعة من عمرها فقط... يقال إنك تعمل في الزراعة بجد وبدأب؟

شربتُ كأسًا من الفودكا دون أن آكُل شيئًا معه، وطلبتُ الأذن لي بالتدخين. فقالت:

- آه، تفضّل!

أشعلتُ سيجارة وقلتُ:

- لا داعي يا ناتالي لأن تجامليني، وأن تتعاملي معي بطريقة رسمية، ولستِ بحاجة لأن تهتمي بي بشكل مبالغ وخاص، فأنا عرّجتُ لكي ألقي نظرة عليك ومن ثم سأختفي من جديد. ولا داعي لأن تشعري بأدنى حرج. إذ إنَّ كل ما كان قد أصبح من الماضي وذهب بلا رجعة. لا يمكنك ألّا تلاحظي أنني ما

زلتُ مفتونًا بك، ولكن افتتاني بك لا يجدر به أن يضايقك وأن يسبب الإزعاج لك. فهذا الإعجاب بات الآن من دون غاية مغرضة، وهادئًا.

أحنت رأسها وأخفضت رموشها وقالت:

- كان مستحيلًا التعوّد والاتفاق، مع ذلك التناقض الغريب بين هذا وذاك. ثم راح وجهها يتورّد بالتدريج.

- هذا صحيح بالمطلق. قلتُ وأنا أصبح شاحبًا، ولكن بصوت جهوري محاولًا أن أقنع نفسي بصحّة ما أقوله. بيدَ أنَّ كلَّ شيءٍ في الدنيا يمضي. أما بشأن ذنبي الرهيب تجاهك، فأنا واثق من أنه بات منذ زمن طويل جدًّا غير ذي أهمية بالنسبة لكِ، وأصبح مفهومًا ومغفورًا من قبلك بدرجة أكبر مما كان قبل. لم يكن ذنبي مع ذلك مقصودًا، وحتى إنه كان جديرًا بالغفران بسبب يفاعتي ومراهقتي المتطرفة آنذاك، ونظرًا لتقاطع الظروف المذهل، والذي حدث معي حينذاك. ثمَّ إنني عوقبتُ بقسوة لقاء ذلك الذنب. بهلاكي الكامل.

- هلاكك؟

- وهل الأمر ليس كذلك؟ فأنت ما زلتِ لا تفهمينني، لا تعرفينني حتى الآن كما سبق وقلتِ ذات يوم؟

صمتت ثم قالت:

- لقد رأيتك في حفل الباليه الراقص في فورونيج... كم

كنتُ فتيّة بعد حينذاك! وكم كنت تعسة إلى درجة لا تصدَّق! ولكن هل يوجد حبٌّ تعس؟ قالت وهي ترفع وجهها وتسأل بكامل فتحة السواد للعينين والرموش. لكن ألا تمنحنا السعادةَ تلك الموسيقى الأكثر حزنًا في الدنيا؟ ولكن هات حدّثني عن نفسك، هل استقريت في القرية بصورة دائمة؟

سألتها بمشقّة:

- هل هذا يعني أنك كنت تحبينني يومئذ؟

مكتبة
t.me/t_pdf

- نعم.

صمتُّ وأنا أشعر بوجهي يشتعل.

- هل صحيح ما سمعته... أنَّ لديك قصة حب، وطفل؟

- هذا ليس حبًّا. قلتُ لها. وإنما رأفة وحنان رهيب لا أكثر.

- أخبرني كل شيء وبالتفصيل.

فحكيت لها كلّ شيء. بما في ذلك ما قالته لي غاشا وهي تنصحني بأن «أسافر وأستمتع في حياتي». وأنهيت حديثي على النحو التالي:

- أصبحتِ تعرفين الآن كم أنا إنسان هالك من كافة النواحي!...

- كفاكَ ذلك! قالت وهي تضمر شيئًا خاصًّا بها. ما زالت

الحياة بأكملها أمامك. ولكن الزواج بالنسبة لك أمر مستحيل. فهي من ذلك الصنف الذي لن ترأف حتى بالطفل، ناهيك عن رأفتها بنفسها.

- لا يكمن لبّ المسألة في الزواج. يا إلهي! كيف لي أن أتزوج!

نظرت إليَّ وهي ساهية وقالت:

- نعم، نعم. وكم كانت نبوءتك صادقة: لقد أصبحنا أنسباء. أنت تشعر الآن بأنك أخ غير شقيق بالنسبة لي؟

ثم وضعت يدَها فوق يدي وقالت:

- لا بد أنك تشعر بالإرهاق بسبب السفر، إلى درجة أنك لم تأكل شيئًا البتة. كما أنَّ وجهك شاحب إلى أقصى درجة. كفانا حديثًا اليوم، هيا اذهب فقد جهزّوا لك السرير في السرادق.

قبّلتُ يدَها طائعًا، فنادت خادمة المنزل التي رافقتني وهي تحمل المصباح، بالرغم من أنَّ الدرب كان واضحًا في ضوء الهلال في السماء الذي كان معلّقًا على انخفاض كبير خلف الحديقة. فمضت أمامي في بداية الأمر عبر الممشى الرئيسي من الأشجار، ومن ثم عبر ممر جانبي يمتد عبر مرج فسيح، إلى نفس ذلك الروَطَن القديم ذي الأعمدة الخشبية. فجلستُ قرب النافذة المفتوحة، في كرسي واسع قريب من السرير ورحت أدخّن وأفكّر: عبثًا قمتُ بهذا التصرف الغبي والمباغت، وعبثًا

عرّجتُ وكنت أراهن على هدوئي وعلى قواي.

كانت الليلة هادئة إلى درجة غير عادية، وكان الوقت متأخّرًا. يفترَض أنه هطل مطر خفيف، ما جعل الجوَّ دافئًا أكثر وأكثر رقّة ولطفًا. وبالتناغم البديع مع هذا الدفء الساكن ومع هذا الصمت راحت تصيح في البعيد، في مختلف أنحاء القرية طلائع الديوك، ببطء وعلى مهل.

كان الهلال المستدير المنير الواقف مقابل الروطن، خلف الحديقة، يبدو وكأنه جمد في مكان واحد، بحيث بدا وكأنه ينظر بترقّب ويلمع وسط الأشجار البعيدة وأشجار التفاح القريبة ومترامية الأغصان، خالطًا ضياءه مع ظلالها. كان المكان ساطعًا وشبيهًا بالزجاج، هناك حيث كان شعاع الضوء يتدفق. في حين أنَّ الأماكن الظليلة كانت مرقشّة وملغزة. اقتربت هي من النافذة، وكانت ترتدي شيئًا ما طويلًا وقاتمًا، يتلألأ مثل الحرير، وبطريقة أيضًا غامضة، ومن دون أن يُسمَع لها صوت.

راح الهلال يتلألأ فوق الحديقة ويحدِّق إلى داخل الروطن مباشرة، حيث رحنا نتكلم بالتناوب. كانت هي مستلقية على السرير، أما أنا فكنت ساجدًا على ركبتي بالقرب منها ممسكًا بيدها:

- كنتُ قد بدأتُ أحبك وحدَك في تلك الليلة الرهيبة التي كانت مليئة بالبروق، دون أن يبقى عندي يومئذ أي شغف آخر،

باستثناء ذلك الشغف الأكثر ابتهاجًا وسعادة والأكثر طهارة بك.

- بلى، وقد أدركتُ ذلك بمرور الوقت. ومع ذلك، حين تذكّرتُ تلك البروق، تذكّرت فورًا ما كان قبل ساعة في المنتزه في الحديقة...

- لا يوجد في الدنيا امرأة مثلك. عندما نظرتُ قبل قليل إلى فستان التوسة الأخضر وإلى ركبتيكِ تحته، شعرتُ بأنني على استعداد لأن أموت مقابل أن ألثم القماش بشفتي، القماش فقط.

- هل يُعقَل أنك لم تنسَني أبدًا، على الإطلاق، طوال هذه السنين؟

- نسيتُكِ فقط كما تنسين أنك حيّة، وأنك تتنفسين. وقد كنتِ على حق إذ قلتِ: لا يوجد حبّ تعس. آه، يا لذلك الرداء البرتقالي، بل وأنت بأكملك، حين كنتِ ما تزالين فتاة صغيرة وقد عبرتِ في ذلك الصباح، كان ذلك صباح حبّي وعشقي لك! ومن ثم ويدك في كمِّ القميص الفلاحي الروسي. وأيضًا انحناءة الرأس بينما كنت تقرئين «الهاوية» وقد رحت أتمتم: «ناتالي، يا ناتالي!».

- نعم، نعم.

- ومن ثم وأنت في حفل الباليه الراقص، وقد كنت طويلة

القامة وفاتنة بطريقة مرعبة في جمالك الأنثوي المكتمل. كم تمنيتُ لو أنني أموت في تلك الليلة من فرط ابتهاجي بحبّك وهُيامي بكِ! ومن ثم وأنتِ تحملين الشمعة بيدِك وملابس الحداد عليك، وطهارتك فيها. لقد تخيلتُ أنَّ تلك الشمعةَ أصبحت مقدّسة بسبب قربها من وجهك.

– وها أنتَ معي من جديد وإلى الأبد هذه المرة. وحتى إننا لن نلتقي إلّا نادرًا، إذ كيف يمكن لي، أنا زوجتك السريّة، أن أتحوّل إلى عشيقة علنية أمام مرأى الجميع؟

توفيت في ديسمبر قرب بحيرة جنيف، بسبب ولادة مبكرة.

٤ أبريل ١٩٤١

مكتبة
t.me/t_pdf
#907

جنتلمان من سان فرانسيسكو

إيفان بونين

يسافر أحد أثرياء سان فرانسيسكو في إجازة طويلة، رفقة زوجته وابنته إلى أوروبا على متن باخرة ملكية. لقد آن أوان التمتع بالثروة والاسترخاء، والتخلي عن مشاق العمل، فتتكشف خلال الرحلة، مفارقات عدة من فلسفة الحياة.

يعُد إيفان بونين(1870-1953)آخر عمالقة الأدب الكلاسيكي الروسي. نال جائزة نوبل للآداب عام 1933، وتُوفِّيَ في أغسطس من عام 1953.تعّرف في شبابه إلى كل من ليف تولستوي، وأنطون تشيخوف، ومكسيم غوركي، وطليعي شعراء الحداثة الروس ألكسندر بلوك، وبريوسوف، وغيرهم.

telegram @t_pdf

info@daralkhan.com
@daralkhan_kw